زهير أبو سعد

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the author Zohir Abu Saad.

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الكاتب زهير أبو سعد.

عنوان الكتاب: على قيد قبلة
اسم المؤلف: زهير أبو سعد
تصميم الغلاف: معتزّ عدنان العزّام
مقدمة: شروق المسالخي

الطبعة الأولى 2018 م

© جميع حقوق الطبع والنشر
محفوظة للكاتب زهير أبو سعد

رقم الإيداع : 2018/7453
Literar-Mechana

طُبع في مطبعة Expressprint

رواية

على قيد قبلة

زهير أبو سعد

مقدمة

الكاتب: زهير أبو سعد

العنوان: على قيد قلبة

إنه القدر يحدد بأفعاله حياتنا ووجهتنا التي يولينا بها حيث يشاء، ليجعلنا عبيداً رغم عشقنا للحرية يكبلنا بقيوده دون سلاسل، نحن لسنا الا جنود في مملكة شطرنجه يضعنا بالخانة المناسبة لكل فرد منا، لكن نصيب ذلك الشاب التائه أتى في خانة دمرتها الحرب وفي وطن شوه بالمعاول فكان قتيلا ولا زال على قيد الحياة فليس من شروط الموت هو أن يتوقف القلب، فهناك قلوب حية تنبض بالموت البطيء لترمى في ثلاجات العمر، لتستلقي على مشرحة الذاكرة، الذاكرة التي تقطعنا رويداً رويداً ونحن عاجزين عن الحركة. هكذا كان التائه يدور حول نفسه لا يدري أي شرق أو غرب يسلك، منهك الجسد قتيل الذاكرة، ويتيم وطن ألقي به على رقعة من كوكب الأرض تعج بالسلام، مكتظة بالحياة المفقودة في أوطاننا، فلم يعد يهم أين هو المهم أن

أصحاب تلك الرقعة استبدلوا أصوات الحروب بالموسيقى ورائحة البارود برائحة الخبز الطاز والبن الممزوج بنكهة الطمأنينة، والحنين يلتف حوله. طير حمام مكسور الجناح لا يقوى التحليق ولا يستطيع المشي فالله كريم لا ينسى عبده أرسل إليه ملاك على هيئة بشر، امرأة شع منها النور تحمل بيدها الرقيقة سنبلة إنسانية نثرت حباتها إليه، آوته في قلبها، أخذته الى حيث الحب.....

الحب وما أدراك ما الحب إنه وطن القلب والشتات الروحي يا لها من قضية وجرم أتى عن طريق الصدفة، ها هو القدر يعقد صفقته مع الصدف علينا، بضع كلمات قالتها حولته من تائه لعاشق، أهي طوق نجاة أم غرق، أنثى طوقته بكل ما آتتها الإنسانية من قوة أخذته إلى حيث الضياع الأكبر إلى وطن ذراعيها، حلم اليقظة أنت..... عن ماذا جاء يبحث في تلك الساحات والأنفاق والجسور وأين ذلك الملجأ؟ أحقآ يبحث عن الملجأ..... فتعالي أيتها الأنثى جاء يبحثك يبحث عن الحب.....

خلف ثغرك أشعلت قنبلة قبلتك التي مزت من رحيق الزهور فما كان قيد حياته إلا على قيد قبلة منك.

شروق المسالخي

إهداء

إلى كل القبل الصادقة التي تركت على الشفاه لمسة
ذاكرة لا تنسى

لا يُمَكن للكَلمَات أَن تَأتي عَبثاً ..

عَبثاً بهَا أَن تتَناثَر من غَير سَفر ..

دَائماً على أُهبة السَفر ، وَحدي أَحزمُ حَقائب الوَهم حَيثُ الخُلود في شُروخ الذَاكرة ، و لكن لم أَكُن أَعَلم بأنَ الذَاكرة لهَا مَصَابيح كَنُجوم السَمَاء ، كُنتُ أَعتقدُ و بحسب تَجرُبتي مَع الذَاكرة بأنَ تلكَ المسَاحَة مُؤلمة جداً ، و سَوداء قَاتمة ، و جَرباء قَاتلة ، نُسَفَكُ بهَا حَتى تَسيل أَوجعنَا من نَحُورنَا و نَسيرُ بُكماً و عُمياً و صُماً ..

هَل لي أَن أَعودَ طفلاً !! ، لا تَستَهويني سوى أَحلامي التَي تَكُبرني حَجماً و مَسَاحةً وَسناً ، و لكنَني مَسنونٌ بسكينهَا أُشرخُ كُلمَا أَتَاني الذَبحُ وَاقفاً فَوقَ جُثَتي مُلتحفاً نَومي سَابتاً في كَهف غَفوتي ، أَسرحُ معَ الخراف و أَعدُّهَا قَبل النَوم ، خراف تُشبهُ أولئكَ الذين لم يُوَافقُونَا الرأي يوماً مَا ، فَخَالفنَاهُم و أَخرجنَاهُم مُرتَدين من قُلوبنَا و حكمنَا عَليهم حُكم الظَالم للمَظلُوم ، هَل كُنتُ ظَالماً يَا تُرى !!

هَل حُكم عَلي بالسجن بالمُؤَبد خَلفَ أَقفاص الخَيال ! ، خَالي الذي يَنتعلُ صُور تَأبى الذَاكرة على مَحوهَا ، و لكن مُحيَرة تلكَ الأَحشَاء الغَير مَلموسة كَيفَ لهَا أَن تُؤلمني من غَير أن

تَلمُسَنا ! ، كَيفَ لهَا أَن تُوجعنَا من غَير أَن تُؤذينَا ! ، كَيفَ لهَا أَن تَقتُلنَا من غَير أَن تستَبيحَ أَعنَاقنَا ! ..

على مَقرُبة كُل كَيفَ ..

أُشَاهدُ محور السماء كَيفَ يَجرُفني إليه و يستَلُ أَجمل اللحَظَات و يُجَردني منها ، أَنا لم أَملك شبراً من حَياتي الذي أمضَيتُهَا حَولَ أُنَاس تَكرَهُني ، لأَن من أَحبني بصدق رَحَلَ قَبلي و يَوماً ما في لَحظة مَا في قَدَر مَا في مَوقف مَا سَوفَ أَرحل أَنا أَيضاً تَاركاً من أُحبُهم من غَير أَن أُبادرهُم بأَنَني أَهَواهُم بصدق ..

سَأَرحل كَما رَحلَ غَيري لأَنَني في أَعماق ذَاتي أَعَلم علم اليَقين بأَنَني مَا أَتيتُ إلى هَذه الدُنَيا إلا عابَراً مَحَطات أنا مُجبرٌ عَلى اجتيازهَا و مُخَير في التَصَرُف بتَفاصيلهَا ، فَلسَفة الذَات بَينَ السَمَاء و الأرض هُنَاكَ و مَخاطر مَا أَتلافاهُ و أَخشَاهُ يُلاحقني حَتى في الخَيال ..

الخَيال فُسحة الانطَواء المُقيت ، أَلجأُ إليه حينما تَضيقُ بَي الدُنيا و تُحصَرُ زَوَاياهُ على صَدري و تَطبقُ الحَياة على خَياشيم أَنفاسي ..

أُريدُ أَن أَتنفس بعُمق ، أُريد أَن أَخوضَ هَذا الكَونَ بصدق ، أُريد اجتياز مضمار المَوت بكُل مُرونة ، لا أَريد أَن أَستمعَ إلى الوعد و الوَعيد ، و لا إلى القَال و القيل ، أُريدُ قَبراً مُريحاً أنَامُ به حَيثُ الأَبدية لا يزعجني به أَحد ، قَبراً كَذاكَ القَبر الخَالي من البَهرجة و الشُموع و الدُموع ، تُراب مُكَون فَوقَ بعَضه البَعض لهُ حكَاية الزَبرجَد و الفُتوة الأُنثَوية ، أُريدُهُ على مَقاسي هَرباً من مَقاس هَذا العَالم القَذر ، لعَلهُ ليسَ قَذر و لكن هَذه نَظرَتي لهَذا الكَون ..

لعَلَ عيوني فيهَا مَرض المَيلان يَرى الكَونَ مَائلاً و أَشتَمُ الهَواء من غَير مَكَانه فَيه عُفونة زَائدة ثَاني أُكسيد الفَسَاد يتَسَربُ من مَنَافذ هَذه الحَياة ، الحَياة لم نَعُد نُطلقُ عَليهَا حَياة لأَننَا نَرى المَوتَ هُوَ الحَل الوَحيد للخَلاص من هَذا المَوت البَطيء ..

أُريدُ مَوتاً يَليقُ بالذَاكرة كَمَسَاحَته الشَاسعة و مدفنه المُتراكم بالشَخصيات و أَشباحه الجَميلة المُؤذية ، أُريدُ شَاهدة بلا اسم و لا عنوان و لا وَطن و لا مَقام ، شَاهدة يَجلس عَليهَا الغَريب ينكُثُ في الأَرض ينتَظرُ الضياع يَترقَبُ الغياب ، أُريدُ ظلاً لَيسَ لهُ رُكنٌ و لا زَاوية حَادة ، ظل يَأتي من غَير

أَن يَأتي ، بَل يأتي لأَذهب أَنا ، أَو يَذهب لأَختفي أَنا ، أَو لا يأتي و لا أَختفي و لا نَلتَقي ..

أُريد أَن لا أُريد ..

إرادة بلا سَبب و لا مُسَبب ، أَتت من ذَاتها ، و تَتَبخر بذاتهَا ، لا تنَتظر جَزاء و لا حَسَاب و لا عقاب ، لا تُخيفهَا حَياة و لا نُشُور و لا سُبات و لا نُعَاس ، تَعيشُ يَتيمة و تَموتُ يَتيمة و لا تَنتظر بَعثاً و لا نُشُوراً ، و لكن نَحنُ مَحكوم عَلينَا بالسجن المُؤبد خَلفَ كُل الأَفكَار التي تُلاحقنَا ، خَلفَ كُل الخَيال الذي يُطَاردنَا ، خَلفَ غَفوَة الذَاكرة التي تَخنقُنَا ، أن تَتَحرر من كُل هَذا المَنطق السَخيف يَعني أَنتَ جَنَيتَ على عَقلكَ بالجُنون ، و أنتَ تَعلم بأَنَكَ أَنتَ عَلى الحَالتَين مَجنُون..

مُلاحَق بكُل أَحمالكَ و مُستَقبلكَ و مَاضيكَ ، مُلاحَق رُغماً عن أَنفكَ و حَتى في نَومكَ أَنت مُطَارد ، و أَن تَتَبرأ من نفايات المَنطق فَأنتَ و الحَياة في مَحل حَاوية كَانَ ..

حَاوية أَنتَ صَنعتهَا بنَفسكَ لأَنَكَ في عَين غَيركَ أنتَ مَنبُوذ شَاذ مُعَاق مُختَل مَسحور أو سَاحر مُصَاب بالجُنون أَو كاريزما اللا وَعي ..

أَنتَ لَستَ وَعي في مَنطق غَيركَ و لن تَكونَ وَعي حَتى تَتَبعَ ملتَهُم و حَتى لو أَتبعَت أَهَواءهم مَا رَضوا عنكَ و لعَمري إنَكَ من المَطرُودين ..

زَوبعة من الخَيال ، و آلهة من الذاكرة ، و العَالم الافتراضي الذي صَممتهُ أنتَ بنفسكَ و أَثثتهُ بمَاضيكَ و ذكرياتكَ تَجتاحُكَ كُلمَا أَحكمتَ الصَمتَ و أَطبقت عَلى نَفسك ظَناً منكَ أَنكَ تَهوى الهُروب و لكن إلى أَين !! ..

إلى المَكَان الذي تَعرفهُ و لا تَعرفهُ ، مَكَان مَشغولٌ بكَ و مَشغولٌ به ، مَكَان لَيسَ كَبقية الأَمكنة ، لأَنَك أَنتَ في مَنطق الأَمكنة مُصَمم على حَسَب تَسييرهَا لَكَ ، و أَنتَ مُصمم على اختراق اختيارهَا، و لكن يَجب أن تَعلم قَبل أَن تُقدم على هَذه الخَطوة بأَنَ الخيار هُوَ خَيركَ و التَسيير لهُ خُيوط مُدَلاة من السَمَاء تَسحبُ و تَمدُ و تَعجن و تَخبز كما تَرغب ..

مُرغم على رَغَباتكَ لأَنهَا وُلدت مَعكَ ، مُرغمة رَغبَاتكَ على اختياركَ لأَنهَا جُزء من الذَاكرة ، و لكن السُؤال يَطرحُ نَفسَهُ دَائماً :

ـ كَيفَ لو كَانت الذَاكرة أُنثى و رَحلت !! ..

نعم أُنثى و رَحلت ..

و لكن هَل أنتَ أيضاً قَد رَحلت !! ..

أسئلة كَأنها مَحطات للمترو أقفُ تَحتَ فيئها ، أبحثُ عن كُرسي شَاغر في عَتمتها ، أتجسسُ على ممراتها ، يَتشردقُ المَارة بلمباتها ..

تَحتلُ المَحطات حَالة الطَقس بلهَيب صَيفها و قَارص شتاءها ، و تَحتَلُ الأفخاذ المُرتجفة أو المَكشوفة زَوايا الجُدران لتَقتُل مَا هَبطَ من السَماء من سياط شَمس أو مسَامير ثَلج ..

عَبثية الأمكنة بكافَة أُبهتها ، عَبثية الروح تَسيلُ من علو وَجع كَزئبق بُركَاني يتَصَببُ من جَبل ..

أنتَ تَقفُ هَناكَ في تلكَ المحَطة تَرتجفُ بُعداً في مَمرات الهَوى ، مُغطسٌ باليُتم من حَشَائش شَعركَ إلى عظام قَدميكَ ، تُراقبُ المَارة مُتجسسٌ على مَلامحهم ، بعُيون مُنهكة من الحَرب تَرى الوجوهَ النَاعمة التي لم تَمسُهَا شَمس ، كُل من يَمشي في هَذه المَحطة يُضيء و يَبتهج سواكَ أنت ..

أنتَ على هَذه القَارة عبارة عن ظُلمة رُبما تَشتَعلُ نوراً يوماً مَا ، حَقيقة كُلنَا يَعرفُها و عندما نَستوعبها نُنكرها تَماماً ، هَل تَعرفُ قطعةَ الفَحم يَا فَتى !! ..

جَوابُكَ المَبتُور دَائماً أي نعم أنكَ تَعرفُهَا ، و تَنسَاها عندما تَشتَعلُ في مدفَئتكَ كَي تُعطيكَ نُوراً و دفئاً ، لا تَقل لَي من أنتَ ...

هَذا أنتَ ..

قَصدت هَذه المَدينة كَي تتحايل على المَاضي ، مَاض لا تعرفُ يَوماً ما بأنهُ سَوفُ يُحاكيكَ و يُحيكُ مُستَقبلكَ ، أنتَ لم تَحمل كُل الحَقائب على ظَهركَ ، اكتَفيتَ بسُبحة أُمك و سَاعة لأبيكَ و أربعة من الصَور فيهَا تَفاصيل وُجوه إخوتكَ ، تَركتَ مَعزوفة الخَراب و الدمار و الحَرب ، كَي تَحملَ حَقيبةَ كَتف فيها أغلى مَا تَملك ..

و مَاذا تَملك يا هَذا!

كدتُ أن أنسَى ، نعم أنتَ تَملك الذَاكرة ، لا أعلم كَم حقيبة مَحشوة في جُمجُمتك! ، و كم وَجه مَشروم! ، و شَارع مُبلل بالوَحل! ، و زُقاق ضَيق ، و رفقة صَلاح و سُوء ، و عائلة أنتَ أحد ضَحاياها! ..

دماغٌ يَكادُ أن يَتصدع بالوجوه و المَواقف و الحُب و الألم و السلم و الحَرب ، يا مسكين ما الذي سَوفَ تَفعلهُ بكُل هَذه الذكريات !! ..

مُستاء أنتَ من الطَريق ، و لكن الوجوه النَاعمة هُنا أنسَتك كُل تَعب ، الطُرق مُعبدة كبسَاط الرؤساء ، السكك مُصطَفة لكُل من يَسير على الحديد ..

لَمعة لم تَشهدها عَيناك من قبل ، يَتوهج كُل شَيء ، حتى الهَواء هُنا يَختلف ، و لكن أنتَ لا تَختلف إطلاقاً عن هَذا الكَوكب ، لا فَوارق بينَك و بَينهم سوى أنَك من دَين ما و عرق ما ..

هُم لم يَسألوكَ عن دينكَ و لا عن عرقكَ ، هُم فقط سَألوكَ : من أي بَلد أنتَ ؟

و أنتَ تَنفُضُ غُبار التَعب من جَفنَيكَ ، و تَستعَد للإجَابة ، و تَقفُ باستعداد كَما كُنتَ تَقفُ أمَامَ عَلم البلاد في الطَابور المَدرسي الصَباحي ، و كُل شَيء بكَ مُرتَب و العَقلُ مَشغول متى سَوف يَمضي الوَقت على نهَاية الحصص الدراسية ، تَرفعُ رَأسكَ عَالياً و تَفتحُ شَفتاكَ كَمَا كَانت مُوجهة الفَصل الثَانوي تَفتحُ فاهَا و تَنطلق :

ـ أَنا من سُوريا ..

الشَيء الوَحيد الذي تَفتخرُ به بأنَك من هَذا الوَطن ، و غَير ذَلك أَنتَ الآن مُجرد عن الوَطن ، و لو لا العَيب لغَنت لكَ أُم كَلثوم :

ـ أنتَ فين و الوَطن فين !!

و لكن سَتعلم بعد خُروجك من الوَطن هُروباً بأنَك لا أَنتَ و لا الوَطن هُنَا ، هَل أَلقَيتَ نَظرة على نَفسكَ ! ، ثمان عَشرة يَوماً حَتى وَصلت إلى أَرض الأَحلام ، إنكَ أنتَ الآن في أُوروبا ، لَيسَ هَذا و حَسب بل في قلب القَارة الأوروبية العَاصمة النمسَاوية فيينَا ، أعودُ مَعكَ إلى هَيئتكَ الرَثة و ثَيابكَ الممزقة و حَقيبتكَ المُهترئة كَيف تَجدُ نَفسكَ أمام المرآة ! ، طَبعاً لا يُوجد هُنا مرآة لأنكَ تَقفُ في أحد المَحطات تَنتظرُ قطاراً ليقلكَ لأقرب مخفر للبوليس ..

عَفواً لم أسمعكَ !! ..

لماذا البُوليس ! ها ، ها ، ها ، ها ..

من أجل أن يسلم نَفسه للبُوليس كَي يُقر و يَعترف بأنه أتى إلى هَذه البلاد لاجئاً هَارباً من الحرب طامعاً بكرم الغرب ، و الكُل يَكذب على الكُل ، و بالأحرى كَذبنا الكذبة و صَدقناها ..

ابقَ مكانكَ و لا تَلتفت يَمنى و لا يسرى ، المارة يَنظرونَ إليكَ ، شَكلكُ بحاجة إلى إعادة هَيكلة ، الثياب مكانها المُناسب في أقرب حاوية ، و الحَقيبة ممنوع الاقتراب منها و من محتوياتها لأنها كُل ثَروتكَ ..

أي أنتَ نكرة في قلب هَذه المجرة ، تميلُ إلى السُمرة و شَعركَ أسود و شَكلكَ شَرقي و مَلامح مُقزَزة و روائح عَفنة ، فعلاً رَائحة تَقتلُ فأراً ، تَباً لكَ هل هَذه رائحتُكَ أم رَائحة الذَاكرة ! ..

تُدافعُ عن ذَاكرتكَ بكُل شَراسة ، تَعضُ على أسنانكَ ، يَظهَرُ العرقُ المُنحدر من جَبهتك ، فعلاً الذي يراكَ يعلم بأنكَ غَاضب جداً ..

بشموخ الصَلاح الذي تَلقيتهُ في بيت الأُبوة ، بعزة النَفس التي رَضَعتها من ثَدي الأُمومة ، بقوة النسر الذي يُحلقُ في الفضَاء باحثاً عن فَريسته ، تُنافحُ عن ذَاكرتكَ كَي تَقول :

ـ ذَاكرة فَيها أمي هَيهات هَيهات أن يَخرُج منها سوى العَنبر و المسك و الرَيحان و العُود ..

لا تَستطيع أن تتخلف عن جُند الذَاكرة، ألست أنتَ النَاطق الرَسمي لها ولفصولها !..

أنتَ لستَ قَذراً بتاتاً ..

مَواسير القذارة التي يُسَاقُ من بين جُدرانها سَوائل الكَراهية هي من جَلبت لهَذه العُيون نَظرات التمييز ، الحُرية في هَذه البلاد عبارة عن مصيدة لا أكثر ، و غَير ذَلك لن تجني منها غَير اسمها ..

و أنتَ تَبحثُ عن الحُرية على أرض الحُرية ، تَغتالُكَ المَلامح التَي تُشبهُ مَلامحكَ ، تتحسسُ نُورها بعينين مُنهمكتَين ، تُقلبُ صَفحاتهَا بأطراف تَعبكَ ، تُنقبُ عن وطن مدفُونٌ بَينَ حاجبيه ، يُدميكَ النَدم لأنَكَ أتيتَ إلى هُنا ..

تَبتَسم لمَن يُشبهُكَ طيناً ..

في عَقيدتكَ أنتَ من الطين ، و أُنثاكَ من ضلعكَ ، و في حُريتهم أنتَ لستَ منهُم و أُنثاهُم استَملكت كُلَ الحُريات ، إذاً فمن تَكون أنتَ !

لا يُهم من تَكون عليكَ أن تَسعى لأن تَكون ، هُنَا لا يُهمهم مَاضيك أبداً و لا شَهادَاتكَ و لا مُقتنياتكَ المُهم هُوَ مَاذا سَتفعل في الأيام القادمة ..

هل لَديكَ بَصمة أو غَرسة أو بَصيص نُور ، إنهم بحاجة إليها لَيسَ من أجلهم بل من أجل وَطنهم هُم ، سَيمتصونَ من دمكَ كَي يمررها في شَريان وَطنهم، إذاً ووَطنكَ أينَ هُو!!..

وَطنكَ مُبتلٌ بخيبات أبنائه ، بخيانَات أهله ، بجشَع رجاله ، بطمع أحفاده ، الوَطن يَتقاطَرُ دماً من كُل ثُقوبه ، الوَطن كَحبل غَسيل قَد نُشَر عَليه غَسيلنَا المُتسخ الذي لن يَنظف إلا بحُبنَا لَبعضنا البَعض ..

كَره الشباب الوَطن عندما علموا بأنَ الوَطن لَن يَضمن لهم حَقهَم قبل مَوتهم و لا حتى بعد مَوتهم ، و عندما شَاهَدوا بأنَ سنابل القُبور تُبنى أكثر من الأمل ، حزموا حَقائبَ الهُروب غَير آبهينَ للوَطن مُتجهينَ نَحوَ المجَهول يُفتشونَ عن وَطن بَديل مُتنَاسينَ الذَاكرة مُتجاهلينَ المَاضي ، و انتَشَر الشَبابُ في كُل أصقاع الأرض بَعيداً عن تلكُمُ الأرض كَي يَحظوا بفُرصَة في هَذه الحَياة و التَاريخ لهُ فُرصَة الكَتابة يَبحثُ عنهم هُنا و هُناك و ما سَتفعلُ بهم الأيام !! ..

لن تَفعل بهم شَيئاً فَكُل نَفس بما كَسَبت رَهينة ، و كُل من عَليهَا فَان و يَبقى وَجه رَبكَ ذُو الجَلال و الإكرام ، تَبتسمُ للمَارة و لكَأنكَ أول مَرة تَرى بَشَراً ، لا يُلقُونَ لكَ بالاً

لتُصَاب بتَشنُج يَغلب عَليه طَعم الإحباط لتبتلَ بالعَرق و تنبض عُروقكَ في غَير مكَانها ، و تَقول : هَذا ما جَناهُ جُنوني ..

لا أبداً سَيدي إنهُ ليسَ جُنوناً أبداً ، بل إنهُ اتكال مُتآكل خَال من التَوكل ، أليسَ أنتَ من خَرجتَ من الوَطن مُتكلاً على الله ! ، أليسَ أنتَ من رَكبتَ البَحر مُستغَيثاً بعُلاه ! ، أليسَ أنتَ من قَطعَ الغابات و السُهول مُتمسكاً برحمته ! ، أليسَ أنتَ من شَققتَ الأرض بضعفكَ كَي تَصل إلى مُدن الأحلام!..

فَماذا تَفعل الآنَ! هَل ألقيتَ كُل هَذا الإيمان خَلفَ ظَهركَ ! ، و من أجل مَاذا يا هَذا ! ، من أجل أنَ البَشر هُنا لا يُشَبهونَك و بأنكَ انخدعتَ بهم ..

تُسعيفُكَ الجماجم الشرقية التي تَذهبُ و تَؤوبُ هُنَا و هُنَاك ، وُجوه أكلت الخُبز المُقدد من دَقيق الشَعير ، جَلست أرضاً حول قَصعة وَاحدة ، حملت قمحاً على الأكتاف ، رَكبت بغلاً نَحو البَساتين ، عَلفت بَقراً عند الغَدير ..

وُجوه شَاركتكَ وَطناً ، لتمنحهم ابتسَامتكَ ، و ليمنحوكَ عَبوسهم و عدم مُبالاتهم فهل يا تُرى هُم من كَوكب غَير الكَوكب الذي أَنتَ منهُ ! ..

كلا أَبداً ، هُم من بني طينَتكَ بل كَانَ حَالهُم أَسوأ من حَالكَ ، و لكن دَثرهُم الغُرورُ و ألبسهَم لباس على غَير مَقاسهم حَتى تَغيرت وجهَاتهم و تَبدلَ حَالهم و ظَنوا أنفُسهم أنهم غَربيين بامتياز ..

أعرفُ المَغربي من رائَحته ، و المَصري من نَكهته ، و السُوري من طعمه ، و عراقي من نَظرته ، الجميع معروف فَبمجرد ما فَتح فَاهُ و تَفوه بأي كَلمة ، هُنَا تَكتملُ الحَقيقة و تُعرف من أي وَطن أنتَ ، فَبينَ قوسَين أنتَ عَربي أي أنتَ غَير مُرحب بكَ هُنَا بَين العَرب الذينَ أتوا بالفيزا و العَرب المُقيمين و العَرب السُياح من قُطعان آل سُعود و غَيرها من دُول الخَليج ..

هذا على سَبيل المثال العَربي في البُلدان الغَربية ، فما بالكَ بالغَربيين أصحاب أهل البلد ، هُنَا و على هَذه الأرض العَرب أعداء لبعضهم البعَض حتى يُثبتُ أحد الطَرفين بأنهُ أشد نذالة من الآخر ، و هَذه حَقيقة أكتبها للتَاريخ حَتى يَعلم

الناس بَعد مَوت قَلمي بأننا عشنا أياماً بين العرب في الدُول الغَربية أشدُ قَسوة من الوطن الذي كَان يُمطرنا حُروباً و دماراً كُلَ يوم ، و هُذا الكَلام لَيس منقول من نذل إلى نَذل بَل أنَا أحد ضَحايا الاختلاط بأغلب العَرب الذين لم أرَ منهُم خَيراً قط في مواطن الحُرية ..

و لأننَا نَدعي الحُرية و نناصرُ من وَقفَ بجانبهَا ، فإننا كَاذبونَ بامتياز بَليغ ، نَحنُ نَرى الحُرية بنظارات مموهة لا نَرى من خَلالها نُور الطَريق ، فقط الذي نَراهُ هُو ما نُريدهُ نحنُ كَأفراد و غَير ذَلك هُو ليس من قَوانين الحُرية مع أنَ الحَرية مساحتها مفتوحة و واسعة للجميع ، و لكن بُعيوننا الضَيقة ضَيقنا كُل وَاسع و كذَبنا كُل مُدافع ، و أثبتنا الحَق لنا و غَيرنا إلى الجَحيم ..

متى سَوفَ نعترف بأننَا نَحنُ دكتاتورين القَرارات ، و لا نَستمع لأحد و إذا تَكلم غَيرُنا و لم يُعجبنا رَأيهُ أقصَيناهُ و إتهمناهُ بالخيانة أو الكُفر أو الردة أو الكَذب ، و فَوقَ كُل هَذا التخلف العنيف فنحنُ نعلم في قَرار أنفُسنا بأننا أشدُ الناس كَذباً و خَديعةً و مكراً و يَمكرونَ و يَمكُرُ الله و اللهُ خَيرُ المَاكرين ..

التَجارب خَير مُوضح لمَا جنيناهُ من أفكار و مُعتقدات و خُرافات ، لا زلنا إلى هَذه اللحظة نُرممُ ذَاكَ الشَبح العَظيم الذي يُدثرنَا بالتخلف ..

و كل كسر بحاجة إلى ترميم ..

فكيفَ لو كَانَت القُلوب مَكسورة فمن سَيرممها !

قَالوا لي عندما تصل إلى فيينا سَلم نَفسكَ إلى أقرب مركز للبُوليس ، سَتتلقى رعاية لم تَشهدها في أي بلد عربي ، سَتعلم حينها بأنَ قصة الإنسان بدَأت هنا ، إنسان يحملُ في حَقيبته بقايا وطن و في قَلبه ذاكرة لا تَخون ، و في شَراايينه جنازة تسيرُ إلى المَجهول ..

أنا على أرض المجهول أُدعى بالإنسان المجهول أحزمُ أفكار و عادات و تقاليد مجهولة ، أريد البداية كي أنطلق حيثُ الأمان ، فَالأعصابُ مُرهقة كوطني من المَوت البطيء ، و الدماغُ مُصَاب بالذُهول من هَول الطريق ، مشاعرٌ تنزفُ بصمت حتى الغرق في مُسَتنقع الدهشة ، و الدَهشة هَشة لا تُريدُ من هَذا الكَوكب سوى وسَادة و غطاء و طعام ، أتضور جُوعاً و أشتهي خُبزاً و جُبناً ، و لكن عظامي تَرتجفُ خوفاً لأنني لا أعرفُ أينَ أذهب و كيفَ الطريق !! ..

أضعتُ كُل الخرائط و مَلامح الدَرب المُعتق ، و فقدتُ السَيطرة على الهَدف لأنَ الضَبابَ مُلوث بالبَشَر ، أُريدُ

ضَباباً حَقيقياً مُفرغاً من دُخان الحَافلات و فُوهات المعَامل ، أريدُ أن أسير وَحدي مع ظلي و أَحلامي و بَقاياي إلى اللا منطق ..

مَنطق الأَشياء هُنَا أَن آخُذ بالنَصيحة ، أَن أَسير إلى أَقرب مَركز بُوليس لأَقولَ لهُم أَنني :

لاجئ ..

تَباً لهَا من كَلمة ، و تَباً لنَا من أَرقام ، أَنتَ و بعدَ كُل هَذا السَير من الحُب أضحيتَ في أعين النَاس مُجرد رَقم ، فَأنتَ مُجرد من كَافة حُقوقك الوَطنية لأَنكَ رَقم بلا وَطن و لا قَضية ، تَجلسُ في البُلدَان الغَربية لتَمشي على الأَرصفة الغَربية و تَركبُ القطَارات الغَربية و لتَرتَاد المَقاهي الغَربية بثَياب غَربية و تَحتَسي الكَابتشينو الغَربي و بيدكَ هاتف غَربي حَول أُنَاس غَربيين لُغتهُم لا تُشبهُ لُغتكَ و عَادتهم لا تُشبهُ عَادَاتك و مُجبر على الاندماج بهم لأَنكَ ضَيف على أَرضهم و من الوَاجب عَليكَ احترام ثَقافتهم و دينهم و فكرهم لأَنهُم أبنَاء الوَطن الوَحيد الذي رَحبَ بكَ ..

أَنتَ لست مُجبراً كَلا بَل أنتَ في مَحل خَبر حَياء ، تَستَحي منهُم لأَنهُم أغدقوا عَليكَ بالحُب و الأَمان ، ذَاكَ الأَمان الذي

كُنتَ تَحلُم به منذُ أن نَبتَ في دمَاغكَ وَطن مُشبع بالرُعب ، و رُبمَا تَكون يوماً من الأَيام أَحدَ ضَحاياهُ و تَموت في سَبيله و يُكتَب في أَعلى شَاهدة قَبركَ الشَهيد البَطل ..

تَموت و تَلتَهمكَ الديدان و يَطحنُ القَبر عظَامكَ في سَبيل مَوقف مَجهول في وَقت مَجهول على دَرب مَجهول تَحملُ هَماً مَجهول لتُحملَ إلى مَقبرة مَجهولة ، و من يسألُ عنكَ يا تُرى و ثَلاثة أَرباع هَذا الوَطن أبناؤهُ شُهداء ..

شُهداء قَضية ، شُهداء حُرية ، شُهَداء تُراب ، شُهداء كرامة ، شُهداء حَرب ، شُهداء جُوع ، شُهداء بَلاء ، و مع كُل هَذا البَلاء الذي أَنتَ به فَستَتنعمُ بالبلاء أَكثر و أَكثَر كُلمَا نَويت أَن تَبقى على أَرض يَتنازعُ عَليهَا قوى الدُول العُظمى من أَجل مَصَالحهم و من أَجل نفطكَ و تُرابكَ و خَيرات وَطنكَ ، من الأَفضل أَن تَبحث عن وَطن بَديل ، طَبعاً ليس بهَذه السُهولة أَبداً ، و لن تَجد كَوطنكَ بديلاً ، و مهما اتَجهت حَقيبة الذَاكرة فأنت مَملوء بذاكَ الوَطن ..

في أَغلب الأَحيان تَشعُر بأنَ الوَطن الذي تَنتمي إليه لعنة سَامة ، و تشعرُ بهَا عندما تَرى بأنَ جُهدكَ و مَنتوجكَ الذهني و الفكري و العَضَلي يَذهب لوَطن يَعملُ أَهلهُ على

أن يَكونَ وَطناً مُميزاً ، أنتَ مفتون بكُل تلكَ الأُبهة التي تُحيطُكَ ، الأَبنية كَالبُنَيان المرصوص و المعامل كالسُور المَصفوف و الشَوارع مُعبدة بكُل و سَائل التَطَور و السكك الحَديدية آه منهَا لو رَأيتَها و إذا رَأيتهَا سَوفَ تَشعُر بتَلكَ اللعنة التي تَتَهجمُ عَليكَ في كُل وَقت و في كُل لحظة ..

لَحظة من وَقتكَ ، بل كُل اللحظات من وَقتكَ ، لأَنَنَا نَعيشُ في زَمن كُل أَيامه فَائضَة من الزَمَان و المَكَان و الأَشخاص ، لَحظة من فراغكَ و ضَياعكَ و أَعرني قَلبكَ لأَن مَا يُكتَب لا تَفهَمهُ العُيون و لم أَكتُب يَوماً للعُيون ، فَكُل الذين تَتَبعوا سَطوري في الأَيام الغابرة و لم يَفقهوا شَيئاً كَانت العُيون تَتَرصَد العبارات و الذينَ وَعوا مَا كَتبت فَلقد كَان القَلب لهُ الحَظ الكَبير في تَتَبع السُطور ..

لَحظة من رَاحَتكَ أَعرني وسَادتكَ و فُنَجانَ قَهوتكَ و أَريكتكَ و دَعني أَرتَاح عنكَ ، فَالعَتب أنهكني و الوَطن أَشَقاني و أَفكاري لم تَعُد تَقوى لتقوى و لا للتَقوى ، أُريد أَنا أُسَافر بَعيداً عن كُل شَيء و حتى عن ذَاتي لَعلي أَجدُ ذَاتي ..

هَا أنَا أَقفُ في مَحطة للقطَارات كُل من بهَا يَحملُ حَقائبَ سَفره ، تَكتَظُ الوَجوه كُلمَا أتى قطَار أو غادر ، يتلاقى

الآيبونَ و الذَاهبون عندَ كُل مُنحنى ، و لو تَرى المُنحنى لأَنحى كُل من فَي المُنَحنى ..

أنَا هُنَا أُريد الذَهاب و الإياب في آن وَاحد ، أُريد أن لا أُريد ، أُريد أن تُمحى مني الإرادة حتى لا أُحَاسَب على إرادَتي ، كَيف سَأَنطلق و إلى أين !!

مُتشَابهة مَلامح البَشر هُنَا ، الجَميع يَميلُ إلى الشَقار و العُيون المُلونة و الصَمت الدَاكن الخَافت الذي يُزعجُ تَراجيديا المَكَان ، كَيفَ سَأقولُ لهُم بأنَني أَبحثُ عن مَركز للبوليس ! ، من سَيفهم لُغتي و لَهجتي و رَغبتي في أَن أَجدَ مكَاناً لي في وَطنهم الأُم ، أَخشَى أن يَسألني أَحدهُم : وَأنتَ أَينَ وَطنكَ ! ، و لمَا خَرجتَ منهُ ! ، و لمَاذا أَتيتَ إلى هُنَا ! ، و هَل سَتبقى دَائماً في هَذه البَلاد ! ..

أَخشَى من السُؤال الاستخباراتي ، لأَنَني عشتُ منذُ طُفولتي على الأَسئلة الفُضولية من العائلة و المَدرسَة و الأَصدقاء و العَمل و كُل من حَولي ، و حَتى في أصغر الأَشَياء مَثلاً إذا تُريد أن تَدخُل إلى بيت الخَلاء يَقفُ في وَجهكَ أَخوكَ الصَغير قَائلاً :

هَل تُريد دُخول بَيت الخَلاء !! ..

عَالم فُضولي بأعلى درجات المَقاييس ..
يَجب أَن تنمو كما يُحبُ غَيركَ لتَقع في قَوالبهم رُغماً عن أَنفكَ ، أنتَ مَحكوم بهم تَشربتَ من أَفكارهم خَرجت من بَطن أُمكَ نَقياً نَظيفاً طَاهراً مُعافاً من كُل هَذه الكَراهية و الحقد و العَداء ، و لكنهُم لن يتَركُوك و شَأنكَ أَبداً ..
مُلاحَق بهم حَيثُ الموت ، لن يُنجيكَ منهُم غير القَبر ، المَكَان الوَحيد الذي يَجعلُهم مُطمئنينَ عَليكَ ، سيبكونكَ و يحَزنون عَليكَ طَبعاً هَذا بظنكَ ..
و لكنهَا دُموع التمَاسيح أَيهُا الأَرنَب البَريء ..
إنكَ طيلةَ حَياتكَ تَهوى عَمَلية الهُروب من مكَان إلى مَكَان تُريد الأمَان ، لا أَمان هُنَا على كَوكب مُرعب يَتقاتلُ عَليه التمَاسيح أَيهُا الأَرنَب ، سَتُتعبكَ المسَافات و المَحَطات و الحُدود و جوَاز سَفرك المُنهك باليتم و كُل مَمَرات و نقاط التَفتيش و المطَارات و غُرف التنقيب الإلكتروني ..
أنتَ مُطَارد رُغماً عن أَنف أَبيكَ لأَنَ أَباكَ أرنب و أنتَ ابن الأرنب من سُلالة الأرانب التي تَنتَشر بالعُبودية ، أَلست أَنت من أَحد أفراد الشَعب ، ألستَ أحد الخراف و الدَجاج و الأرانب ! ..

قُل لي من أَي فَصيل أَليف أنتَ أَقولُ لكَ من أَنت ! ، أنتَ المَخدوع المَخدوش الذي فُكت شيفرة كُل عُذرية لكَ لكَي يُمسكوا عَليكَ مَمسَكاً و يَفضَحوا أمركَ ..

أنتَ مُهتم جداً لأَمركَ ، مُهتم حدَ الغَثَيان ، تَخشَى المَاضي و المُستَقبل ، تَخاف الحجر و البَشَر ، تَتَوجسُ من الإنس و الجَان ، تَهربُ من القَضَاء لتَقع في فَخاخ القَدر ، مَصدوم بكُل من حَولكَ مَصدوم بنفسكَ كَيفَ وَصل بكَ الحَال بأن تَخشَى من الجُدران ، مصَدوم من الجُدران كَيفَ خَلقَ اللهُ لهَا آذان ، و لكن لماذَا ! ..

مَا الذي تُخبئهُ حتى تَخاف من الجُدران! ..

الحَقيقة مَثلاً ؟ ، كُلنَا يَعرف الحَقيقة ، و الذي يقولُ لكَ لا يعَرف الحَقيقة أُتفل في وَجهه و وَجه لهُ تُهمة الكَذب ، لأنَ الحَقيقة لا تُريد أنَبياء و لا رُسُل و لا قديسين ، الحَقيقة بحاجة إلى إنصَاف و مَسَاحة من الحُب كَي تَعيش على أَرض العَدل بَسلام ، بَعيداً عن أَي دين عن أَي قَومية عن أَي عرقية ، بل إنهَا بحَاجة إلى أَرض يتعايشُ بهَا بني الإنسَان بَينَ بَعضهم البَعض من غَير سَلاح بل بَسلام ، من

غَير كراهية و عمائم و صلبان و تَماثيل بل بالحُب و بالله تُعمر الأَرضُ و الأَرواح ..

أُنتَ مُنهك من البحَث ، من حُدود إلى حُدود ، و من بَحر إلى بَحر ، و من دَولة إلى دَولة ، عن مَاذا تَبحث يا أَرنب ، الجَزر في كُل مَكَان و لكَن مَزرعة الجَزر مُفخخة بالمَصَايد و المكائد ، حَذاري حَذاري من الاقتراب فَهذا الجَزر مَدسُوس و مَحشو بالسُم و مَحفوف بالذئاب و الثَعالب ..

و لأنَني أرنَبٌ لدَيه هواية السَفر .. تَعبت ..

أُريدُ قَبراً فهَذا يَكفي ، مَللت أُريدُ كَفناً ، سَأمت أُريدُ دُوداً يلتَهمني ، أُريد أن لا أُريد ، و لكنَ إرادتي تَمنعني عن أية إرادة ، لأَني مَحكومٌ بهَا ..

ظلٌ يَقفُ فَوقَ رَأسي في تلكَ المَحَطة ، ظلٌ لَهُ رائحة السُلالة اليَعقوبية ، فيه من غَفوة اليُوسُفية ، أُريدُ هَذا الظلَ وَطناً كَي أنمو من جَديد ..

أرفعَ رَأسي حَيثُ كُل مَا لا أَتوقعهُ ، أَرفعُ قَلبي كَي أُمسكُ بحَافَة عُيون مُعفرة بالغَابات السندَيان ، بُندقة أَنا في تلكَ الغَابة ، بَل ظبي يعَرجُ بَينَ الأغصَان الشَاهقة التي تَطَالُ السَمَاء ، أَيُ عنَاق ذاكَ بينَ العُلو و الجمَال ! ، يتدحرجُ قَلبي

إلى قَعر وَاد لا قَرار لهُ ، و أَتدحَرجُ خَلفهُ و أصرخُ و أنَا أَهوي مَعهُ :

تَعال إلى أينَ أنتَ ذَاهب !! ..

هَل أَطيرُ فرحاً بأني رَأيتُ مَا يُسعدني ، ظلٌ خَافت أَقوى من نُور الشَمس سَقط في هَذه المَجرة ، هَل هَذا الجمَال هُوَ مَجرة و هَذا الكَون عبارة عن ذَرة !

أشعرُ بعدم وُجودي في رحَاب هَذا الشَلال الذي يَهطلُ من بَين شَفتَيه كُل هَذا الكمَال ، تَجمد المكَان ، تَوقفت القطَارات ، لم أَعُد أَستَمعُ إلى صَوت أَحذية المَارة ، الزمنُ انَحسَر في حُلقوم الانكماش ، و بينَ مَد و جَزر يَتطايرُ الشَعر لتَكتمل مَلامح القَمر ، قَمر يُعادلُ كُل بَدر مُكتمل ، قمَر لَيس بحَاجة ليُكملهُ ، أُنثى من فَصيلة الضَوء و النُجوم إذا رَأيتهَا لقُلتَ و الله مَا رَأيتُ بَلاءً قَط و لكَأنَ الجَنة مُشرعة نَصَبَ عَينَيكَ و زُينت للنَاظرين ..

.. Halloooo -

هَكذا أَطلقتهَا للهَواء الذي امتَلكتهُ ، هَكذا قَذفتها كَأنَني مُحتلاً و هي حمَامَة السَلام ، أنَا ضَحية مُنهوشة و مَذبوحة كَبَقية هَذه الجَمَاجم المُتناثرة التي رَحلت مع أَحلامهَا ، أَنا تَخليتُ

عن أَحلامي و أَتيتُ إلى هَذا الوَطنُ فَارغاً كَي أتنفس فقط بعيداً عن دُخَان الحَرب و جَلجَلة المَدافع ، أُريدُ جنازةً و مُعزَينَ تَابوتاً و قَبراً و مَطراً ، أُريد أن أُحملَ و يُبكى عَلي ، أَريد أن أَموتَ بسلام بأرض فيهَا سَلام و حَولي عَائلة رَضَعوا من أَثداء السَلام ، زَوجة و أَطفال و بيت و أمَان ..

لقد ماتت كَافة أَحلامي عندما رَأيتُ بَيتاً يَهوي بكَبسة زر لقذيفة هاون ، قَتلوا كُل مَا بنى من طُفولة عندما هَوت تلكَ القَذيفة مَارة بسَقف بيت أبي و أُمي مُخترقة الجدار الذي تَتَربعُ عَليه صَورة حَفل زَواج أَبواي ، كَانَ حفَلاً جمَيلاً ذَاكَ اليَوم عندما تناثَرت تلكَ الأُمنيات و تَآكلت بلحَظة حَرب و ضَعف ، لقد فَقدنَا أملَ السَلام و حمامتها السَامية ذَات الجنَاحَان الأبيضاوان ..

جَلسنَا فَوقَ الرُكَام نُراقبُ الحمَام ، و لكنَ السمَاء مُلبدة بالدخُان و الحمَام في مَحل خَبر كَانَ ، لا مَكَانَ للحمَام بَين الغربان و بنَات آوى تلكَ الطُيور التي تَقتَاتُ على جُثَث ذَكرياتنا ، على لَحم جَارتنَا أُم غَسَان ، و عظَام جَارنَا مَروان ، و جُثث أبنَاء الحَي يونس و سَليم ورنَيم و بيلسان..

- Hallooo ..

إنها بداية لكُل من ليسَ لهُ بدَاية ، لعَلهَا بدَاية مَعي ، في أَول خطوة قَبل مَسَافة أَية شَهَقة ، شَعرتُ بأنَني أُريدُ أن أَبكي ، صَوت أَنجدني من الضياع ، أنَا عَالقٌ بينَ كَمَاشَة السمَاء و الأَرض و بينَ ضَفتي الشَتَاء و الأَمل ..

هَل حَقاً هَذه هي الأَمل التي كَانوا يَقولونَ لنَا دَائمَا حينمَا فقدنا الثقة بأَنفُسنَا لا تَفقدوا الأَمل ، كُنتُ أشتَهي أَن أَرَاهَا و أَضُمهَا و أَشكوا ما بي من نُزوح من أَرض الرَاحة إلى حُدود الأَلم ..

هَل حَقاً هَذه أَمل أو الأَمل !!

ـ هَل لي أَن أُقدم لكَ المُسَاعدة ! ..

باللغُة الإنجليزية أَطلقتهَا ، تُريد أن تَنقُذني من تَكالب المَحطات و زَحمة القطَارات و قَرف الوجُوه المُكررة المَكسوة بالصُفرة و لَمعة النفاق ، كَانت المسَافة بَيني و بَينهَا مَسَاحة وَطن و مَسيرةَ رُعب و قُبلة ، ضَحكتُ في قَلبي وَقتهَا حَتى وَقعَ قَلبي من مَكَانه ، و لَكن بصمت من غَير أن تنتبه لذلك :

ـ نَعم أنَا هُنَا تائه ..

ابتسَمت حَتى بدت نَواجذ الدُنَيا ، أشرَقت السَمَاء و لكَأنهَا في رَهن ابتسَامتهَا ، صَحتُ في قعر ذَاتي بأن أرى الدُنَيا في قبة جمال أنثَى ! ، ما هَذه الأَسنَانُ المصطَفة كَقوافل البَجعات المُهاجرة بينَ كُثبان الغُيوم ، كدتُ أن أَقولَ لهَا أنَا من فَصيلة البجع الشَرقي قَد أدمتني الحُروب أَتيتُ كَي أكذبَ على نَفسي و أَقول لك إني أبحُث عن وَطن ، و لكن كَيفُ لوَطن أَحملُه في حَقائبَ الذَاكرة أَن أنسَى ذَاكَ الوَطن ! كدتُ أن أَقولَ لهَا أنَا بَجعة لم ينبُت ريشُهَا بَعد بحاجة لصدر سَماء خَالية من الطَائرات الحَربية و الراجمات الصَاروخية و القنَابل العُنقودية ..

كدتُ أن أَقول لهَا هَل أنت أمل ! ..

ـ حَسناً عَزيزي أنتَ من أَين !؟ ..

في الحَقيقة أمَام هَذا النُور الذي سَيطرَ على مَنافذ الذَاكرة فَأنا مُصَاب بالزهايمر ، فانَا لم أَعُد أعرف من أَنا و لا من أَين أَنا و لكن رُبمَا :

ـ أنَا من درعا ..

ضَحكت مَرة أُخرى ، و شَعرتُ بالخَجل ، و عندما رَأيت بأنني لم أَتفاعل معها و كَست وَجهي حُمرة قَاتمة لملمت

ابتسامتها خجلاً ، هل غَابت الشَمس يا لَيلى ، و من لليلى و النُورُ يَجثُمُ أمَامي :

ـ أنَا أعتذر ، أَعتقد أنَني تَجاوزتُ حُدودي و لكن لا أَعرف أينَ هَذه دَرعا ! ، هَل هي في الشَرق الأَوسط ! ، أم منطقة أُخرى !؟ ..

هُنَا تَتَوقف الكَلمَات ، و أَدبُهَا يَصفحُ لهَا عن مَا بَذر منهَا من تَصرُف رُبمَا أنهُ ليسَ لائق ، هَل فَعلاً لا تَعرفُ دَرعا ! ، قَلب بلاد الشَام و عَاصمة إقَليم حَوران ، و مَربط الشُجعان ! ، هَل لا زَال هُنَاك أَحد في العَالم لا يَعرفُ دَرعا ! ..

ـ مَدينة درعا تَقعُ في جَنوب سُوريا ..

في الحَقيقة لم و لن تَقع دَرعا يَوماً من الأَيام ، دَرعا الإباء و الشَهامة و النَخوة ، تلكَ المَدينة التي لم يَتخرجُ من بين صُخورهَا سوى العَمالقة في كُل فُنون العلم والأدب والقُوة..

ـ أنَا أعتذرُ مَرة أُخرى ، هَل لي بتَقديم المُسَاعدة ! ، هَل تَبحثُ عن شَيء هُنَا أو تَنتَظرُ شَيئاً آخر ! ..

كَانت تَقفُ خَلفَها امرأة بسن أُمي ، يَكسوهَا الخَجلُ و الحَياء ، تَرتدي ثَوباً أبيضَ يَميل إلى لون البيج ، و تَعقدُ شَعرهَا بشَال غَريب نَوعاً مَا ، كَانَ يتدلى من أُذنيهَا حَلقُ نَاعمٌ

طَويل و يتَربعُ على عُنقهَا عقد من اللؤلؤ ، هَل هُوَ لؤلؤ مغشوش! ..

لعلهُ اللؤلؤ يَرتدي بَعضَهُ و يَتدثَرُ بنقائه و لَمعانه ، لعَلني أقفُ في المكَان الخَطَأ ، لَعلني لا علة لي سوى صَمتُ و مُراقبة هَذا النُور ، كَانت تلكَ المَرأة التي تُخبئُ بينَ تَجاعيدهَا إحدى الأُمهَات ، ولكن الله يَعوضُكَ كُلَ شَيء في هَذه الحَياة سوى صَورة كانت سَبباً في وُجودكَ أبوكَ وأُمُكَ..

ـ نعم أنَا منذُ سَاعة وَصلتُ من دُول المَجر قَاطعاً البَحر و الغابات و الأَنهار و كُل الحواجز البَشَرية و الحَجرية ، و أُريد أن أُسلم نَفسي للبوليس لأنَني بالأَحرى أَريد أُقدمُ اللجوء في النمسَا ، و لا أَعرفُ شَيئاً هُنَا ..

كُنتُ أَتحدث عن المأسَاة التي عانَيتُ منهَا في طَريقي إلى فيينَا ، و مع أنَ الحَديث كَان عبارة عن مُوجز صَغير إلا أَن ذَلكَ أَثر بَها و كَانَ وَاضحاً على وَجهها و وَجه السَيدة التي تَقفُ بجَانبهَا ، أَخذت نَفساً عميقاً ، كَان خَلفَ ذَاكَ الشَهيق كَلام و حَديث طَويل و لكن بحَاجة إلى تَفصيل ، سُعدتُ بلحظة صَغيرة عندمَا تَعاطفت معي ، أعادني ذَاكَ الشُعور

إلى طُفولتي إلى حَوران و الأَرض الطيبة و المَحبة ، شُعور كُنتُ أَراهُ على وُجه أُمي و جَدتي و خَالاتي ، و حَلَ بيننا فَاصلٌ زَمني لطَيف كَسرتُ عَيني عن رُؤياهَا و انتَابني الشُرود أُراقبُ المَارة ، حَتى قَطعت صَمتَ العُيون بَصوتهَا الذي يَنهالُ عَلى صَحراء قَلبي كَغيمة مُشبعة بالمَطر ، هَي المَطر و أنَا من انهمر على فُسحة الأمل :

ـ حَسناً عندي اقتراح لكَ و أتمنى أن تَقبل هَذه الدَعوة ، أُريدُكَ أن تَأتي معنا هَذه الليلة كَي تَستحم و تأكُل و تنام جَيداً و بعد ذَلك سَوف نذهب معاً لنَتخذ الإجراءات القَانُونية اللازمة ، مَا رأيُكَ ! ..

لعلي أنَا في حُلم ، لعَلي لا زلتُ نَائماً تَحتَ شَجرة التُوت في مَقدونيا أتَخفَى تَحتهَا كي لا يَراني البُوليس المَقدوني و يُلقي القَبض عَلي ، لَعلي لا زلتُ في سُبات عَميق في أَحد غُرف القُمامة التي يَجرُهَا رَأس قطَار عَابراً بهَا المَكب الكَبير على الحُدود الكرواتية ، لَعلني ضُربتُ بعَصى أحد قَطَاع الطُرق في هنغاريا و أُغمي عَلي و سرق كُل مَا لدَي ..

هَل أنَا حَقاً أمَامَ مَلاك قَام بدعوتي إلى مَنَزله كَي أَغفُو بسَلام ! ، أُريد من القَدر أن يَتولى صَفعي مراراً و تكَراراً كَي أَصحو من هَذا السُبات و الغَباء ! ..

ـ هَيا قُم لا تتردد ..

أَرى المَحطة حَولي تَدورُ كَأنَني أَنا نُقطة البداية أَو لعَلني النهَاية الأَزَلية التي لا مَفر منها ، أحَاولُ تَركيب دَعوتهَا المُبعثرة أو فهمي الغَير المُتناثر ، أحَاولُ أن أَقومَ من مَكَاني و لكن مفاصلي مُتجمدة و أعصَابي لا تَكادُ أن تَقوى على النُهوض و قَلبي لا يُصدقُ مَا يَجري ، و لكنَ كَانَ هُنَاكَ شَيء وَاحد يَجري ..

إنهَا الرُوح في أحشائي ..

أتَفادَى ذَاكَ التَخبُط الدَاخلي ، و لكنَ أن تَخرُج من جَهنم و أنتَ مَحكومٌ عَليكَ بالخُلود لَعمري هَذا جُنون مَا بعَدهُ جُنون ، فَأنَا مُعلق بينَ تَلبية الدَعوة و بين رَفضها ، تَدخَلت المَرأة التي تَقفُ بجَانبهَا :

ـ هَيَا يا أُمي تَعال ..

آه مَا أَجملهَا من دَعوة ، هَل هي فعلاً أُمي و أنا ابن لهَا ! ، أم أَنهَا مُجَاملة ، المُعَادلة هُنَا قَاسية جداً ، عندما يُرمِمُ يُتمكَ الآخرونَ بكَلمة بدعوة ببسمة و بلقُمة بلمحة بمسحة ، ممسُوح منَك كُل مَا هُو لَذيذ و لكن هُنَا كَوكب آخر ألقوا

بأحكام السمَاء خَلفَ ظهُورهم و جَعلوا من الإنسانية نُوراً لَهُم ..

هَل يَا تُرى كُنَا نَعيشُ في كذبة ! ..

كذبة الدين و العَادَات و التَقاليد و القَوانين الوَضعية و الأَحكام السَمَائية و غَير ذَلكَ من تَعديل لأَخلاقنَا ! ، و المُصيبة كُلمَا جَاءنَا ذَاكَ المُصلح و الصَلاح و قَوَانينه غَرقنَا أَكثر و أَكثر في وَحل الفَسَاد ..

مَدت يَدهَا فَمد القَلبُ أَمواجه يَلطمُ بعَضَهُ البَعض ، تَمسمَرت عيناهَا مُحاولتان اقتلاعي من أَرض بتُّ سنيناً أَحاولُ الثَبَاتَ عَليهَا ، و لكن اخضرار عَينيهَا الوَاسَعتين تُحَاولان اجتثاث ما تَبقى من ضَعفي ، تُحركُ أصَابعهَا التي لا تُضَاهيهَا أصَابع و زوابعَ أعَصابي تنزعُ أشرعة الخَفق بين دَفتي صَدري ..

ـ حَسناً أنَا موافق ، شكراً جزيلاً ..

تَهللَ وَجه المَرأة التي بجَانبهَا ، أضَع كَفي بكَفهَا ، تَضَعُ الأَرضَ كُل أَكفُهَا بأكف السَمَاء ، يبتَسم المَلاك الذي دعَاني ، لا أَعرفُ اسمهَا و لكن لا تُهم الأسماء و الصفات لطَالما القَلب مُعفر بالطُهر و النَقاء ..

مُعفرٌ بالخَجل أنَا هَذه أولُ مَرة في حَياتي أُلامسُ النُور ، و لكن لا أُنكرُ بأنَني خَرجتُ من رَحم جُدرانهُ من نُور و رَضَعتُ من أَثداء ذَاكَ النُور ، فَذاكَ النُور لا يُضَاهيه نُور ، و لكن هَذا نُور من نَوع آخر يُدغدغُ الرُوح و يتلعلعُ مَعهُ ، نُور مُعلق بينَ الهَطول و التَبخُر و النُزول و الهُبوط و أنَا تلكَ الريشَة التي تَطيرُ في فُسحة الحَرب البَاردة ، أُمسكُ بيدهَا تَحولُ السَمَاوات السَبع أن تَتَمسك ببعضهَا كي لا تَخَرُ على جَبينهَا سَاجدة خَاضعة مُنقادة مُنصَاعة ..

هَل حَل السَلامُ في صَدري ! ..

نَمشي مَعاً نَحوَ آلة التَذاكر ، فَأنَا لا أَحُب التَذاكر و لا تُعجني فَلسفتهَا لأَنهَا في الحَقيقة تَأخُذُكَ و تَأخُذُ منكَ و لا تعيدُ لكَ شَيئاً و لا تُعيدُكَ ، و إن أَعادتكَ فَإنهَا تأَخُذ منَك دَهراً و رَاحَةً ..

أُريدُ تَذكرة أَعودُ بهَا طفلاً أضَعُ صَدري على نَحر أُمي و أَنامُ بسَلام بعيداً عن صَوت الوَاقع الذي أَهلكت الوَقائع ، كَانت تَقولُ لي أُمي عندمَا تَجد شَريكتكَ في الحَياة فستُنسَيكَ هَذا الصَدر ، لأَن المَرأة تَسرق لُبَ الرَجُل و تُجردهُ من كلُ

مَاضيه و إن تَركتهُ فمَكانهُ على أرصفة الجُنون ، و لكن إن نَسيت فَكُن مُخلصاً للنسيان ..

طَردتُ هَذا الوَهم من رَأسي ، لا أَعتقد بأنَ تَتَعثر بي أُنثى فَائقة الجمَال و الأدب ، أنَا الفَلاح ابن الرَجُل الفَلاح ابن الأَرض و القَمح و الزَيتون و التُراب و الحَجر ، هي ابنة الشَمس و النُور و الحُرية و الانعتاق من هَذا العَالم المُعَقد ، كلانَا مُنفصلان و لكن الأكُف مُتشَابكة الآن ، يقول لي ضَميري بأنَ هَذه الأُنثى إنسَانة بمعنى الكَلمة و يَقول لي قَلبي تَهانيناً ، سَخرتُ من ذَاكَ الحوار الذي يَدورُ بينَ الضَمير و القَلب حتى أَخرسَتُ فَاهَ الطَرفين ..

وقَفَ النُور أمَام آلة التَذاكر ، و قَطعت تَذكرة صَغيرة لي ، كَانت السَيدة الكَبيرة تَنتظر مَعي و الآنسَة الصَغيرة تَنتظر التَذكرة سَقطت التَذكرة و ثَلاث قَطع نقدية حَديدية ، كَانت القَطع تنحدر كالربق يُسمعُ لهطولهَا صَدى الوُجود و يُسمعُ لصَمتي جُوعاً يَكادُ يُوقعني أرضاً ، لم أَطلب في كُل حَياتي من أي إنسَان كَان رَغيفَ خُبز ، و لكن طَلبتُ من السَمَاء رَغيفَ أُم ، فَمنذُ أن رَحلت أُمي و أَنا جَائع جداً و لو أتى طُهاة الكون برمتهم على إشَباعي فَسأبقى جَائعاً جداً ، كُنتُ

أجلسُ بالقُرب من الفُرن أُراقبُ كَفَ أُمي كَيفَ تَمُد العَجين بيدهَا من بَعد أن تُبللهُ بالزَيت و من ثُمَ تُلقي به فَوقَ رُذاذ الطَحين حتى تتطَاير أغبرة الدَقيق فَوقَ كُل صَوت على مشَارف أَي رَجف أمَامَ جَلجلة الخَشب المُمتد للمد ، كَانت هيَ المَد تَمَاماً و أنَا ذَاكَ الجَزر الهَادئ الطفل و الوديع ، و هَا أنَا أعود إلى نُور أُمي من جَديد و لكن بمَاركة غَربية بَحتة أنتَظرُ أن تَنتهي من قَطع تَذكرة و الرُكوب معها حَيثُ المَجهول ، لا أَعلم كَيفَ وَثقتُ بهَا و حَلت بي السَكينة و هَبطت عَلى قَلبي الرَحمة ..

رَكبنَا المترو و لم يَكن مُزدحماً جَلستُ بالقُرب من النَافذة و كَانَ النَفقُ مُنبهراً بالنُور رُغم الطرق الحَالكة بالظَلام فَلم أعد أخاف من الأنفاق أبداً ، فلقد تَرعرعتُ في نَفق وَطن لا تَأتيه شَمس الحُرية فَكيفَ بنفق مُمتد عبر وَطن جَديد يُقدسُ الحُرية و حَق الرأي و الرأي الآخر ، لم يُكن هُنَاك فَارق كَبير بينَ مَشهد المَاضي و فُرن أُمي و مَشهد الحَاضر و نافذة مترو الأنفاق ففي كَلا الحَالتين كُنتُ أنتَظر خُبزاً و الآن لا أنتَظر شَيئاً سوى الانتظار ..

فَلسَفة الانتظار و أنَا أَعلم بأنَ الشَيء إن حَدثَ فَسوفَ يَحدُث و إن لم يَحدثُ فَلن يَحدث ، فَلمَا الانتَظار إذاً !

نعم في الحَقيقة كُل الذين أنتَظرُهم يَنتظرونني أن أذهب إليهم ، و لكن سَوفَ أذَهب عَاجلاً أم آجلاً و رُغماً عن أَنفي ، و كُل الذي وَدعُتهم دَاخَل أَكفانهم أقولُ لهُم :

تَهانيناً لكُم بأن تَخلصتُم من هَذه الحَياة التي هي أَقربُ إلى هَذه الأنفاق و وصَلتُم إلى مَحطتكم الأَخيرة .

تَخيل ..

أنَا الآن أَركبُ بمترو يُقلني تَحتَ الأَنفاق إلى المَجهول ، أجلسُ بجَانب أُنثى لا أَعرفُ ما اسمُها ، وَثقتُ بهَا في لَحظة اهتمام باهت ، ذَاكَ المَخلوق العَجيب الذي لا يُلمس و إنما تَشعرُ به ، إنهُ مَفهوم الجَري خَلفَ الذَات التي تُحبهَا لأَنها هَي لا لأَنهَا مَحشوة برغبة تَدورُ حَولهَا ..

لا يَهُم لأَنني بالأَحرى لم أَعُد أشعر بشَيء فَأتمنى لَكُل شَخص يُكمل مَسيرهُ و حَديثَهُ القيم الذي سَيُخرج هَذا الكَون من كَوارثه البَشَرية ..

تَوقفَ المَترو في المَحطة السَابعة ، كُنتُ أحصي المَحطات كَمَا أُحصي الدعايات عند مُتابعتي لَبرنَامج تلفازي ، كَانت المَحطات تَعجُ بالبَشَر غَريبي الأَطوار ، لعَلي أنا غَريب الأطوار ، اللحوم مَكشُوفة و العُيون مُشبعة و الأجسَاد مُتماسكة و الصَمتُ يُسَيطر على المَكان و المترو يسحبُنَا إليه حتى نَكشَتني المَرأة الأُخرى :

ـ هَيا بنَا يَا بُني ..

وَضَعتُ حَقَيبتي على كَتفي و سرتُ خَلفهن كمُسَافر أضَاعَ رحلتهُ في وَسَط الصَحراء ، عَيناي مَشدودتان نَحوَ الأَبنية

المُتناسقة و النَوافذ المُستَطيلة و الشَوارع النَظيفة و الحَدائق التي تَتَدلى على أَسوارهَا أغصَان السنديان و الصنوبر و الأرز ، بينَ شُقوق ذَاكَ الحَي استَوقفتني نَجمة دَاود مُتمركزة على أَحد المَنَارات الغير مَعروفة ، تَجمدَ قَلبي وَقتهَا لأَنَ المَفهوم الذي تَلقَينَاهُ في المَدارس و عَبرَ ذاكَ الدين الحَنيف و العَادَات و التقَاليد بأن الحَذرَ من اليَهود وَاجب ..

وَاجب !! ..

من أَين أَتى هَذا الوَاجب ، علمتني الحَياة بأنَ الذي يَأتيكَ كَي يُحذركَ من شَيء مَا أَحذر منهُ ، و إنهَا الدُروس تتوالى يَوماً بعدَ يَوم ، و الحَياة مُستَمرة و كُلنَا مُفارقون ، لم تَغب تلكَ الابتسَامة من وَجه ذَاكَ المَلاك الذي أسيرُ بجَانبه ، و الشَمس و السمَاء و قَطع من الغُيوم التي تُلاحقنَا أينما اتجهنا جَميع تلكَ المسَارات تسيرُ معنا و لكَأنَ الحَياة ليسَ لهَا حَديث غَيرنَا ، أشعرُ بأننَا فعَلنا شَيئاً غَير قَانوني و المَجرات تَتَجسس عَلينَا أينمَا اتَجهنا حتى وَصَلنَا إلى مَبنى جَميل جداً و حَي هَادئ و رَائع كُل مَا به مُبتهج و مُبتسم للدُنيا و لأَهلهَا :

ـ تَفضَل ..

كَانت الدَعوة لَبقة جداً و التي دعتني أشَدُ لباقة ، الدَرجُ لولبي أول مَرة أُشَاهُد هَذه السَلالم التي أُشَاهدهَا في الأَفلام الكلاسيكية ، كُلمَا ارتفعتُ خُطوة هَبط قَلبي خُطوة أُخرى حَيثُ كَانَ تَناسُق في كُل التَفاصيل الدَاخلية و الخَارجية و اشعَارات يُرسلهَا لي القَلب عند كُل مشَهد و مَوقف ، إنهُ الطَابق الخَامس حَيثُ البَاب العَريض بالخَشَب السَمَيك و الجَرس الأرستقراطي ، كَانت السَيدة الأُخرى تَبحثُ عن المفتاح في حقيبتها اليدَوية و كُنتُ أَبحثُ عن حَياة أُخرى أول مَرة تقع عَيني عَليهَا :

ـ تَفضَل بُني ..

نَظرتُ إلى الأُنثى ذَات المَلامح المَلائكية ، كَانَت رُوحها مُبتهجة جداً هَزت برأَسهَا أن أُدخُل ، كَأنني طفل يُريد إذناً من أُمه ، رَفعت صَوتهَا قَائلة :

- שָׁלוֹם וּבְרָכָה ..

لُغة أُخرى أَعرفُهَا جَيداً ، سَمعتهُا من ذي قَبل ، بيني و بينهَا صلة رَحم حتى تَنبهَ كُلَ جَسدي و انتَفضَت كُلَ مَشَاعري ، أتَى ذَاكَ الصَوتُ من مَكان قَريب ، صَوتٌ جَهوري خَشن

يُشبهُ صَوتَ أبي مَصحوب بسَعلة خَفيفة مُتحشرجه بهَا النَفس قَريبة إلى القَلب و الروح :

- שָׁלוֹם וּבְרָכָה ..

إنهُ يَقول مَرحباً ، إنهَا العبرية التي أَعرفُ عطرهَا ، كَلمات لهَا صَدى تَدوي في مَكامن الصَدر ، ألحانٌ من المَاضي تُطاردُ مُستَقبلي و تَسُدَ بعبقها كُلَ مَنافذ الخُطى ، إنهُ صَوت العم يَعقوب إبراهام و العَمة صوفيا إبراهَام و أَهل الحَي القَديم في دمشق القَديمة ، نَطقتُ من بعد أن أطبقت أنفاسي فَرحاً :

- אתה מדבר עברית ؟

التَفتَ إليَّ الجَميع كَأنهُم صُعقوا و ذُهلوا ، صَاحت السَيدة من بعد أن سَقطت الأكياس من يَدها :

- אתה גם מדבר עברית?

كُنتُ أقول لهُنَ : هَل تتحدثونَ العبرية ! ، كَان الجَواب سُؤالاً مماثلاً لسُؤلي حيثُ قَالت السَيدة : و هَل أنتَ أَيضاً تتحدثُ العَبرية ! ..

حَالة من الدَهشَة انتابت الجَميع ، اقتحمتني و حَلقت بي نَحوَ السَماء و ألقت بي من عُلو غَيمة سَوداء ، و لكن المَشهد كَان مُختلفاً جذرياً أنَا مَلاك يُضَاهي بجَماله كَافةَ المَلائكة :

- כן..! אני מדבר עברית ..

نعم ، أنَا أَتحدث العبرية بكُل طَلاقَة ، لا زَالت الأفواهُ مُشرعة للذُهول ، لا زلتُ لا أُصدق مَا أسمع و مَا أرى ، لا زَالت الخُطى تَزحفُ في الكريدور الذي يَفصَلنَا عن ذَاكَ الصَوت الخَشن :

- איפה אתם؟

كَانَ يَقول أينَ أنتم! ، كُنتُ سَأقول لهُ :

- אנחנו כאן ! ..

نَحنُ هُنَا ، هَا ، هَا ، هَا ..

ضَحكتُ من أَعماق قَلبي حَتى سَقطتُ أرضاً ، و بدَأت القَهقهة تَتَعالى من المَرأتَين ، و الرجُل الذي لم أرهُ بعد يَقول :

- אתה אורח? למה אתה צוחק?

هَل معَكُم أَحد ! ، لمَاذَا تضحكون ؟

كنتُ أتوقع أن أرى رَجلاً عَادي المَظهر ..
رَجُل قد لَوثتهُ الحَضَارة ، أو رُبمَا تَبرأ من هَذه الحَضارة ، كَانت هُنَاكَ عدة تَخمينات ، و لكن أنَا أقفُ أمَامَ صَدمة عَارمة تَجرفني نَحو الضَحك و تَجرفُ أهلَ البَيت إلى القهقَهة بصوت عال ..
هَذه أولُ مَرة أَضَحكُ بهَذه الطَريقَة الغَربية منذُ أن خَرجتُ من وَطني ، ثَمة هُنَاكَ وُجوهٌ تشبهُ الوَطن و شَوارع قَريبة إلى الذَاكرة و مَسَاحة حُب تُسَاوي المَاضي برمته ..
ثَمة هُنَاكَ وُجوهٌ لو تُجالسُهَا الدَهرَ بأكمله لن تَرضَى عنهُم حتى لَو اتبعَوا ملَتَكَ ، و هُنَاكَ نَظرة وَاحدة صَادقة من عُيون لم تَلتقِ بهَا من قَبل أن تَرمُقكَ لتَخترقَ قَلبكَ لتُريدَكَ سَعيداً ما دُمتَ حَياً ..
و أنتَ عَلى قَيد المَسير إلى المَوت اطمأن عَزيزي فَأنتَ لا زلتَ على قَيد الحَياة ، تَلكَ الحَياة التي تَسحبُكَ إلى المَوت ، لا يوَجد حَياة بالأصل لأنَكَ في الحقيقة أنتَ مَيت حتى تَجدَ وَطن أو حُب أو حُضن ، أنتَ إلى زَوال حتى يَجد من يشدَ أوتَارَ قَلبكَ ألا تُريد أن تَعزفَ لرُوحكَ لَحنَ الخُلود !! ..

فَلنَرقُص إذاً نَخباً للموت و الحَياة ، فَلنَدُبَ بنبضنا على بَلاط القُبور بأنَنَا لا زلنَا أَحياء و للحُلم بقية ، فَأنتَ لَستَ في حُلم يا فَتى أنتَ هُنَا مع النُور حَيثُ فقدتَ وَطن و عَوضكَ اللهُ وَطناً آخر عَائلة أُخرى أُنَاس يُحبونكَ من غَير مُقابل يُعطونكَ من غَير عوض يَمنحونكَ من غَير جَميل ..

أنتَ الجمَيل هُنَا ، حَيثُ أرسَلَ الله لكَ من يُجمَلُكَ و يَرفعَكَ مَكاناً عَلياً ، أُنَاس يَختلفونَ عَنَك و رُبمَا يُخَالفُونكَ و قَد رُبيتَ منُذُ الأزل و حشَى أعداء الإنسَانية في دمَاغكَ بأنهُم أَعداءكَ ، و لكن سَتكتشف بَعد شَوط من الصَدمة بأنَ من كَانَ يُحذَرك منهُم هُم أَعداؤكَ أرسَلتهم شَياطينهم كَي يُفرقونَ بينَكَ و بينَ حُلمكَ ، حَيثُ قَالوا لكَ احلم و لكن إياكَ أن تَقتَرب حُدودَ الله ..

أنتَ لا تَعلم مَا هي الحُدود التي تَقترب إليهَا أو تَبتعد عنها هي حُدود و فقط ، هَكذا زَرعوا في دمَاغكَ و أحَاطوكَ بالخَوف و الرُعب و جَهنم و سَقر و غَير ذَلكَ من وسائل الرُعب و التَرهيب ، سَتعلم بعدَ أن تَموتَ ضَحكاً على مَاضيكَ بأنكَ مَخدوع مسَلوب العَقل و الفكر و الحُرية ، مُستَعبد حتى أَخمص قَدمَيكَ ، عُبوديتكَ شَرف لكَ هُم هَكذا

قَالوا لَك ، و أنتَ وَثقتَ بهم و سَلمتهم عَقلكَ و جَعلتهم يَعيثُون في قَلبكَ و مُخكَ فَسَاداً و استَعباداً ..

هَل أنتَ الآن سَعيد !؟ ..

في الحَقيقة أنتَ حَقير جداً ، خَال من الحَياة مَحشو بالرُعب فَأنتَ تَعيش في صراع مع ذَاتكَ و مع غَيركَ و تَخشَى أن تَخرُج من عُبوديتكَ و تَخشَى مما عَلمكَ العُبودية و تَموتُ رُعباً كُلَ سَاعة و أُختهَا من عدم التَوازن الذي حَلَ في أَحشَائكَ ..

مَحشوٌ بهم ، مُتغلغلونَ بكَ ، لا يَوجد قَانون الرَجَاء في عَقيدتكَ لأنهُم سَلبوهَا منكَ ، بل أنتَ مُشَرب بعَقيدة الخَشية و الخَوف و الرُعب ، تَجلدُكَ الكَوابيس من البَشَر ، و من هُم البَشَر يا تُرى! ، كُومبارس في مُسَلسل حَياتكَ أوجدهُم القَدر ، يتَحكمونَ في كُل تَفاصيل خَطواتكَ نَحوَ النَجاح أو الفَشَل ، نَوع من البكَتريا المَلموسة يَدبونَ على الأرض كبقية الحَيوانَات ، ميزهم الله بالعَقل فَعاثوا على اليابسَة فَسَاداً و إفسَاداً ، جَميلهُم قبحهُ تَكبرهُ ، و قَبيحهم بددهُ تَعجرفهُ ، و غنيهم حَقير حَتى يُثبت عَكس ذَلك ، و فَقيرهم يَرى هَذا الكَوكب بعدسَة كسرة الخُبز ، و مع أنَ الجمَيع يَعلم أينَ

مَصيرهَم على حَسب التَجربة التي ذَاقهَا من قَبلهَم فَإنهُم يتَصَارعونَ على الوَجود و لا وَجودَ لأَحد حَتى لَو مَلكَ الدُنَيا و من عَليهَا فالنهَاية وَاضحة وصَريحة ..

ثَلاثة أشَياء زَائلة و في مَطامع البَشَر هي حياة ، و لكن للأسَف لم يُحسنوا استخدامهَا فأدمتهم و قَتلتهَم و بَددتهم وَجعلتُهم شُعوباً و قَبائل للتَنَاحُر و التكالب و القَوي يَقتُل الضَعيف على أتفه سَبب في نَظري و في نَظره على ثَروة لن يُنزل منهَا ذَرة في قَبره ، الأرض و الجنس و المَال ..

هُنَا و على هَذه الأرض و على مَقرُبة من الحَدث ، يَخترق المَمَر ذَاكَ الرَجُل الذي أوقعَ قَلبي أرضاً بزَيه الذي يَفوقُ خَيال الدَراما :

שלום ..

مَرحباً ، شَلوم ، كُنتُ أمسَحُ دمعة من آثار الضَحك من آمَاق عَيني ، كَانت الظَهيرة آن ذَاك ، أُقدرُ سنَ الرَجُل مَا يُقارب بالسَبعينَ عاماً ، لَحية بَيضَاء كَثَة جَميلة مُنسَقة ، بنطَال أسَود حَالك بالظَلام مَكوي بإتقان ، قَميص أبيض مُرتَب قُطني نَظيف نَصَاعهُ يُضَاهي القُلوب التي كَانت تُحدثنَا عن نقائهَا ، طَاقية صَغيرة قَد عُقدت بشَكلة كَي لا تَسقُط ، و

جدائل مَلفوفه حَولَ بَعضها البَعض مَدهونة بزَيت رَائحتهُ كَالريحان ، مَوجة من النُور تَخترقُ مَدخل البَوابة الدَاخَلية ، مَشهد مُتَكامل يَستحق التَصفيق على هَذا الأَدب و الاستقبال الرَائع ، مُبَاشَرة ألقيتُ عَليه التَحية :

שלום ..

ابتسَم حتى سَمعتُ لشَهيقه فَرحة تَكادُ تَهتزُ بشراً و سُروراً ، كَانَ رَجُلاً في مُكتمل الطُهر ، وجهٌ يَكسُوهُ العَفوية كَأنَت مَلامحهُ مَلامحَ طفل ، كَأنني أنَا ذَاكَ الطفل الذي يَطرقُ باب الجيران ليقولَ لهَم :

ـ هَل أُمي عندَكُم !؟ ..

مُتشَابكة المَشَاهد لسَعَة الذَاكَرة ، مُتشَابكة الرُوح بمن وَدعتهُم و من استَقبلهُم في هَذه اللحَظة :

מה שלומך !

اتسَعت دائرة النُور بيني و بينهُ ، كَانت النسوة يَنظرنَ إلينَا في مُكتمل الصَدمة ..

ברוך הבא, מעדיף אותי ..

ـ تَفَضَل بُني أهلاً و سَهلاً بكَ ..

كُنتُ أُريد أنَ أفهم مَا يَجري ، و لكَنَ الذي يَجري هُو أَكبر بكثير من هَذه التَفاهَات التي رَأيتُهَا في طَريقي إلى قَارة الأَحلام ، لم أَتَوقع أَن هَذا الحُلم سيَرتَطم بالحَقيقة ..

فعلاً إنهَا حَقيقة ، و لكنَ الحَياء قَد التَهمني في لَحظة ضَعف مَخملية مَثقوبة الجَوارب كَجواربي تَمَاماً ، فَمَاذا تَتَوقع من رَجل سَارَ على قَدَمَية آلاف الكيلو مترات !! ..

زَحفاً على حُلمه و مَشياً على قَدَميه من غَير أي تَوَقف!

حذاء مَعقود ربطتان مُختلفتان اللون و النَوع ، مُحكمة الأَقدام في قَبضَة الحذاء و الذي يرى الحذاء سَوفَ يَقول :

يا إلهي ، مَاذا سَوفَ أفعل الآن ! ، إذا فَككتُ العُقد سَوفَ تَخرجُ في هَذا المَكان رَائحة أَقوى من رَائحة عَفن المَوتى ، و ماذا سَوفَ يَقولونَ عني ! ..

و لتَقول عني البَشَرية بأَنَني أَجرب لا قيمة لي ، و من مَتى كُنتُ أَهتم بَحديث البَشَر المُقرف ، و لكن هَؤلاء النَاس اللطُفاء نَوعاً آخر من البَشَر ، نَوع تَبتَسمُ لهُم النُجومُ و الشَمسُ و القَمرُ لهُم بحسبان ، بَينَ الصَدمة و الدَهشَة أقفُ

أَمامهُم و هُم يَنتَظرونَني أَحَل عُقدَ حذائي ، أَنقذتني تلكَ الرَقيقة عندما قَالت :

אבי ואמי, אני מקווה שתכניס אותי פנימה

بلغَتها العبرية الرَقيقة أَمرتهَم أن يَدَخلوا إلى الدَاخَل ، شَعرت بتلكَ الحُمرة التي لم تَتَضح بَسبب اتسَاخ بَشَرتي التي تَميلُ إلى السُمرة ، ابتَسم الرَجلُ كَأنهُ أول مَرة يَرى أمامهُ بشَراً و قَال :

טוב, ניכנס

وَافق على طَلب ابنته ، و ذَهبَ طَيفهُمَا و بَقيت مَعي تَنظُر إلي و تَبتَسم ، كُنتُ أشَعر بأنهَا سوفَ تسَقطُ ضَحكاً ، كُنتُ سَأسقُطُ مَعها مَغشياً عَليَّ ، و لكَنها بدأت بالقَهقهة التي لم تَستَطع أن تُسَكتهَا أبداً و لا بأي حَال من الأَحوال ، و تَدحرجت من الحُلقوم أصوات خَلفَ قَهقهَتها و سَقطنَا معاً نَضَحكُ بصوت يَكادُ يَرَجعُ إلينَا العَجوزان ، لَملَمت ضَحكتهَا و قَالت لي :

ـ اسَمع أنَا أَعلم بأنَ جَواربكَ مَثقوبة أو لعَلكَ من غَير جوارب ، و رَائحة قَدميكَ أقوى من القنَابل النَووية ، فَسوفَ

أفسحُ لكَ المَجال إلى الحَمَام كَي تَستَحم و أُعطيكَ مَنشَفة و ثَياب من خزَانة أَخي كَي تُريح مَا بكَ من إحراج ..

قَاطعتهُا بدهَشة ، و أَمسَكتُ معصَمها بأصَابع يدَي ، فَكَانت المسَافة مَا بيني و بينَهَا مسَافةَ لَهفة و سَانتي مترات من قُبلة رُبما تُوقعَني قَتيلاً في بَحر عَينَيهَا ..

آه من تلكَ الدُجنة الخَضراء المُخضَبة بالجنَان ، لَو رَأيتهَا لبَعتَ دُنَياكَ و آخرتكَ و مَا تَبقى من رُجولتكَ من أَجل الاختلاء بهَا و لو للَحظة وَاحدة ..

شَعرتُ بأنَ معصَمهَا سَوفَ يَنخلعُ بَينَ قَبضَتي مَخالبي ، كَمَعصَم غَزال و وَقعَ بينَ فَكي ذئب ، تَباً لجُرأتي و حَقارتي ، مَاذا أَفعل أَنا هُنَا ! ..

و لمَا كُل هَذه الأُبهَة من الاستقبال و التَبجيل ! ، هَل حَقاً أَنَا أَستَحق أم أَنهُ مُجرد حُلم و سَوفَ أستَيقظ في تلكَ المَحطة التي كُنتُ أَنوي بهَا الذَهاب إلى البُوَليس !! ..

كَانت تُحدقُ بي كَأنها صَياد و تَحتَ كَفه تَكمنُ الشباك ، كُنتُ أَحفُر عَينَيّ في السلسلة التي تَدلت من صَدرهَا و بَان من خَلف انسدالهَا كُل جنَانه ، مَجنونان لا نَعرفُ من هَذه الأَجسَاد سوى الاصطياد و الانقضَاض على بَعضنا البَعض

، و لكن نَحنُ لسَنا أَهلاً للصَيد و لا هَذه البُقعة مَكَاناً لانتزاع مَا بنَا من وَهم ..

بصوت يَزحفُ جُنودَ الجَان إليه مُطَاعة مُنصَاعة تَحتَ أَمرهَا ، بهمس تخلعُ المَجرات دَورانهَا لتَتَكورَ حَولَ عَينَيهَا ، بلمحة تَرمقُ بهَا مَا تَبقى من أعصاب أصَابهَا عَطب الخَدر، بجنون الخَفق بَعدَ كُل نَار لله المُوقدة ألقت بأوامرهَا:

תוריד את הנעליים

هَكذا قَالتهَا : اخَلع نَعليكَ ..

يا الله ، أنا مُوسَى ، و هَا أَنا خَلعتُ كُلي و انقبضت في أحشَائهَا كُلي ، و يا كُلي من لكُلي ! ..

مُخدرٌ بهَا حتى الثُمَالة ، مُخدرة بالهَوى حَتى الوَلع ، مَجبولٌ بي الصَمت كَيف لَهَا بهذه اللهفة أن اقتادتني إلى صَحرائهَا!..

كَجمل مُحمل عَليه أمَانة هَوى ، قَد هَوت بأحمالهَا على سَنمي ، و أضَاعت الطَريقَ قَبل رُؤياهَا ، هَل وَجدتُ الطَريقَ حَقاً ! ، أم أَنَنا التَقينَا من قَبل ! ، أم أننَا جَعلنَا من اللقاء أداة لتتسَاءل مَرة أُخرى :

هَل التَقيتُم حَقاً ! ..

أفلتُّ معصَمهَا ، و لكنَ عَينَيهَا لم تُفلتان من قَبضَة قَلبي ، و لم تَحسرُ مَدهما ، كَانت العُقد تُفك بلا أية قُيود ، و لكَأنهَا عُقد من حَرير ، كَانت جَفناهَا حَرير ، و كُنتُ أنَا قَافلة الصَناديق المُحملة بهَا ، و كُلمَا فُكت عُقدة صَعد من الحذاء غَفوة ..

قَاتلة الرَائحة ، قَاتلٌ صَدرهَا ، أشعُر بأنَها سَوفَ يُغمى عَليهَا ، أشعرُ بأنَني سَوفَ يُغمى عَلي ، كُنتُ أَتمهل بكُل عُقدة ، أُريد أن أسرقَ خَلوتي بهَا كَي أرتَوي من مُحَيط جَمَالهَا ، و أَغرفُ من هَذه الشَواطئ التي جَبلهَا اللهُ فَوقَ بعَضها البَعض و جَعلهَا مَلاكاً طَهوراً ..

مُتعبونَ من نَقص ذَاكَ الدفء بينَ حَنَايا صَدورنَا ، مُتشَققة القُلوب بحَاجة لبحة نَجاة من صَلابة هَذا الكَون و سُكونه ، كَذب من قَال إنهَا شَهوة ، بل إنهَا حَياة و لكن لا يَشعرون ..

وَضعت أطراف أصَابعهَا على طَرفي أَنفهَا ، لم أشعر بأنَ الرَائحة قَوية ، و كَيفَ لي بأن أشعر بشَيء بعد هَذا الجَمَال الذي دَكَ كُل مَعاقل شُعوري !! ..

בוא מהר

- هَيا بسرعة ..

كُنَا نَضَحكُ معاً على كُل لَحظة ، الرَائحة ، النَظَرات ، العُقد ، الحذاء ، الثياب الرَثَة و أنَا و هي ..

بكُل مَا أُوتيت العبرية من قوة قَالتهَا :

הריח רע

رَائحة كَريهة جداً ، كَانت تَضَحك حَتى بانت نَواجذ الحَياة ، أَمامَ ابتسَامتهَا لم يَكَن هُنَاكَ قَانون المَمَات ، فإما حَياة و إمَا حَياة ، فَكلا الحَياتَان حَياة فَاختر يا رَعَاكَ الله ..

حمَلتُ الحذاء بيدَين مُتشَقققتَين ، و بَدَأتُ أسير عَلى رُؤوس أصَابعي ، كَانت تُشير إليَّ بأطراف إصبعهاَ السَبابة أن اتَبعني ..

كَانَ المَمَرُ نَاصعاً كَتُلوج جَبل الشَيخ ، كُنتُ مُتَسخاً و مُبتلاً بالحَياة ، تَتَقاطرُ من تَحت لحيتي نَجس الطُرقات القَاسية ، قَاسية كَانت المَمَرات التي تُؤدي إلى سرداب هَذا الجمَال ، و كُنتُ أَسير خَلفَ الجمَال بروائح تُنكرُ ذَاتهَا ، أَنكرتُ ذَاتي في لَحظة سُقوط من عُلو نَظرة فحَبست أنفاسي كي لا أرتطم أكثر بالحَياة ، تباً للحَياة لأنني أسير خَلفَ حَياة أُخرى تُدعى هيَ ..

أشرعت باب الحمام لي ، هَبت رَائحة الريحان و ألوان المُنظفات من فُوهة البَاب ، كَانت المَعركة مُحتدمة على

عَتبة البَاب بينَ الخَير و الشَر ، بين النظافة و القَذارة ، بينَ العطر و النتن ، اصطدام غَير مَسبوق لهُ و رَكلة رُكنية لرائحة إبطي حَيث خَرجت رَائحة الصَابون خَارج حَرم الحمَام المُلبس بالسيرامَيك الفَاخر ..

أُبهة مَا بعَدهَا أُبهة ، و لكنَهَا مُطرزة بالطُهر و التَواضع ..

אביא לך בגדים נקיים

قَتلتني تلكَ اللكَنة العبرية ذَات المَداخل المُجوفة ، قَتلتني رَائحة الصَابون ، ضَحكتُ في نَفسي و أَخفَيتهَا أَمامهَا كَي لا تَرى ما بي من سُخرية ، أسخر على هَذا المنطق للدُنَيا التي إن أَردتهَا أَهملتك و إن تَركتهَا لَحقَتك ، قَالت :

ـ سَوفَ أُحضر لكَ ثَياباً نَظيفة .. بمَنطق الشَاب الذي هُوَ يَعرفُ لَغَتهَا و لَغة أبيهَا و أبي أبيهَا :

אני אחכה אבל לא אעשה

صَمتت تَتَحسسُ عن رَائحة ذُكورة بينَ الحُروف ، كَانت العبرية سَيدة المَكَان ، كُنتُ مَعها أَتجسسُ عن نَبض أمل ، و لكَني كُنتُ أتسَاءل : أَكلُ هَذا الأمَل و أَبحثُ عن أمَل ! ، صَديقتي أُريد أن أَنسَى كُل الأمَل و مُشتقاته ، أَمل مَارديني

، أمَل مَسَالمة ، أمَل رَهونجي ، و غَيرهم من الأَملات الغَارقات في البَحر الأبيض المَتوسط ..

أُريد هَذا الأَمل المَاكث بين فَواصل عَيني ، كيفَ قَذفتهَا السَمَاء ، كَيف للسمَاء أن تَراني و أَنا مُتَخفي تَحتَ مظَلة إحدى المَحَطَات العملاقة :

אתה מביא משהו אחר מאשר בגדים?

كَانت تَتَراشَق عَلي بالأسئلة :

ـ هَل أحضرُ لكَ شَيئاً آخر غَيرَ الثياب ! ..

مَا هَذه الأسئلة الغَير مَنطقية ! ، بتُ أَخافُ عَليهَا مني و لَيسَ العَكس ، نَمت أَحلامُنَا في مَناطق شَرقية ، يَفعلُ الرَجُل مَا يَفعل فلا يعيبهُ شَيء ..

هُنَا الأمرُ يَختلف جذرياً ..

לעולם לא, תודה

تَشكرتهَا و أغلقت خَلفي البَاب ، وضَعتُ ظَهري على الباب و سَقطتُ كَنقَطة زَيت و سَالت من خَلف نَافذة زُجَاج ، هَبطَ بهَا قَلبي حَتى وَصلَ إلى الرُخَام ، أَضحيتُ قطعة رُخامية تَتَوسَدُ الأرض ، لم أَعُد أشَعُر برائحة قدَمَاي و لا عَبق الصَابون ، أنَا الآن مُتَجمد و مُنحسَر أَمامَ فُوهة الجمَال ، لم

أخَلع ثَيابي بَعد ، جَالساً أرضاً مَصدوماً بكُل ما يَليقُ بهذه الصَدمة ، كَان مَحفور فَوقَ رخَام الحَمام :

ההחזר שלך כאן

أي مَهما ذَهبت و مَهما صَعدت و نَزلت عَودتكَ إلى الطُهر و النَقاء و النَظَافة ، نعم هَذا صَحيح ، كُنت في مُستَنقع القَذارة في الشَرق الأوسَط و أَنقذني الله من تلكَ البؤرة التي لا تَهدأ من الحُروب و الفتن ، كَانَ البَابُ يُطرق بخفة :

האם אני יכול להתחבר?

كَانت تَطرقُ الباب و تَستأذن بالدَخول ، و لكنَني لا زَلتُ في مَكَاني هَادئاً ، أبحثُ عن ذَاتي غَارقاً في وَحل الرُخَام ، إذاً دَخلت الآن مَاذا سَوفَ أقولُ لهَا :

- כן, קדימה

أذنتُ لَها بالدُخول ، دَخلت و صُدمت ، كَانت مُتوقعة أَن أَكونَ مُجرداً من ثيابي و غَارقاً في حَوض الصَابون و المَاء أَفركُ جَسدي و أُزيل تلكَ الرَائحة القَاتلة ، كُنتُ أسبحُ في الخَيال الوَاسع معها ..

أريدُ أَن أسبح مَعها وَحدهَا التي سَحبتني إلى هَذا المَنَطق من الخَوف بل من الأمَان :

למה עכשיו לא התרחצת?

كَانت تَتَساءل أن لمَاذا إلى هَذه اللحَظة لم أستَحم ! ، كَدتُ أن أَقول لهَا هَذا الحَوض لا يَتحمل شَخصاً وَاحداً ، طَردتُ تلكَ الأوهام من دمَاغي و حَلقتُ عَالياً معَ الفَضَاء مع الرُخَام الذي يَتماسَكُ مع سَقف الحَمَام :

و لكن نَسيت أَن تَتركَ بَقاياهَا .

أنَا حُطَام من ذَاكرة ..

بَقايا المَاضي و رَدَم السعَادة ..

أوصَلتني السُطور إلى قانون بتُ أقتنع به جداً ، اكتَشفتُ في هَذه اللحظة التَاريخية بأنَني عَتَبة بَاب لإحدى المُدن التي تَعجُ بالأَقدام الغَريبة ، و مَا دَخلَ تلكَ المَدينة قَدم إلا و دَاسَ تلكَ العَتبة حَتى يَترُكَ على قَلبي أَثرهُ ، و هَا أنَا أَعجُ الأَثر و الملامح المَأهولة بالغُرباء ..

هَل سَتَكون هَذه المَلامح المَلائكية مُجرد سَراب يمرُ و لا يُلقي لي بَالاً أو العَكس ! ، هَا أَنا أُجرد نَفسي بذاتي ، أَخلعُ القَميص ليبانَ الشَعرُ المُغطى بالقَذارة المُعرش على مَساحَات جلدي المُترهل من قَلة الغذاء ، جسدٌ لم تَلمسهُ أصَابعَ أُنثى سواها تلكَ التي أَدعوهَا أُمي ، فهَل أرسل اللهُ لي أُماً أُخرى بلغُة أُخرى على أرض أُخرى ! ..

هَل يا تُرى هَذا المَشهد حَقيقي ! ..

منذُ ثَلاث أَشهر هَذه أول مَرة أَخلعُ بنطالي من غَير أَي خَوف و لا رَهبة مما سَيجري ، كُنتُ أَخلعهُ إلى رُكبتي كَي أَقضي حَاجَتي ، و كُنتُ أَقضيهَا بخوف من أَن تُلقي القَبض

عَلي الشُرطة المَجرية أو الدُول المَجاورة ، لأنني لم أَشاهد مثل قَسَاوة قُلوبهم و مُعَامَلتهم !! ..

هَا هُوَ قد بانَ السروال الدَاخَلي المُخطط باللون الأَبيض و الأصفر كَما كُنتُ أَعتقد ، لقد اشتريتهُ من أحد أَسواق إزمير الشَعبية من امرأة عَجوز كَانت تَبيع الثياب الدَاخلية الرجَالية على أحد الأرصفة ، كَانَ لونهُ مُلفتٌ للانتباه لونهُ غَريب جداً ، ذَات خُطوط مُلتوية يَميل إلى الغَرابة ..

كُنتُ غَريباً في تلكَ المَدينة أَبحثُ عن وَجه يُشبهُ الوَطن ، عن رَائحة تَشي بأَنَني في أَمان ، فَكم حَذروني أَن أُمسك بحَقيبتي جَيداً خَوفاً من السَلب أو السَرقة أو النَهب ، فَلم أَعتقد بأن أَجد سَارقاً وَاحداً ، فمن كُثرة القصص و الأَحاديث عن هَذا الأَمر بتُ أَشكُ في نَفسي ، نَعم أَنا لص بامتياز ..

لَقد نَهبتُ الذَاكرة في دمَاغي وَحملتُ بهَا إلى هُنَا ، كُنتُ لا أُريدهَا ، و كنتُ لا أَعبأُ بهَا ، و لكنهَا ألزمتني بأن أَقفَ بينَ فَواصل المَاضي و المُستَقبل و أن أحملَ ثقلهَا فَوقَ كَاهلي ، و هَا أنَا الآن أَحملُ سروال من تلكَ الذَاكرة ، سروال كنتُ

أعتقدُ بأنهُ أبيض و أَصفر ، و لكنهُ أَسود و بُني ، لَونهُ الطريق و قَذارة ما يُفرزهُ الجسَد من فَضلات ..

يَع ..

هَكذا و بكُل قَرف ، كَيف سَأُظهرهُ و أينَ سَوفَ أَرميه ! ، كَانَ العَفنُ يَهرشُ به هَرشاً ، و كَانت الغَرابة تُحيطني كَيفَ أنَني لم أَشعُر بكُل هَذه البَكتيريا ..

خَوف هُوَ من يَجعلكَ تدع كُلَ التَزامَاتكَ و تَجري إلى مَكان لُجي تَبحثُ عن أمَان ، تَتَبرأُ من ذَاتكَ في لَحظة جُبن تَتسللُ إلى مَفاصلكَ ، تُريدُ أن تُريدكَ قَتيلاً أو صَريعاً في وَحل مغبتها ..

لا تَهرب بَعيداً سَيدي ..

الأقدارُ لن تَدعكَ تُفلت منهَا و من مخالبها و من شباكَها ، سَتقعُ في قَفصها لأنكَ أنتَ و بلُغة أصح في قَفصها ، و لكنكَ تَشعر بأنكَ حُرٌ و القُبور هي سجن و العكسُ صَحيح ، إنَ الذي تَوسدَ التُراب و اتخذَ من الظَلام مَخلداً نَجا من هَذه الحَياة بمحض الصدفة بل كمَا كَتبَ لهُ القَدر ..

مُخدرٌ أَنا بمن حَولي من أشباح ، و أَعلم بأنَني مُخدر ، و أنسَجمُ بتلكَ الأَوهام ، و أَعلم بأنهَا أَوهَام ، و أتعاطف

لقضَاياهَا التَافهَة ، و أَعلم بأنهَا تَافهة ، و أَحاولُ مَدَ يَد العَون لهَا ، و أَعلم بأنَ كُلَ تلكَ الأيادَي نَاكرة للجَميل ، و أعلم بأنهَا نَاكرة و كَاذبة ، و لكن المُصيبة العُظمى ..

بأَنني لا أَعلم أَنني أعلم إلا بعدَ أن أَعلم ..

فَلسَفة علمية لا أحد يَعلمُ ماهَيتهَا إلا أَنا ..

كُنتُ أَخلعُ سروالي الذي أَضحى جُزء من جَسَدي ، كَانَ مُلتَصقاً جداً بالجَلد ، أَرى أَطرافَ مطَاطه قد أَخذَ على خَصري شَارعاً لهُ ، كَأنهَا سياط و اتَخذت من هَذا الجسَد مخلداً لهَا ..

و كُلمَا ارتَخى السروال أَكثر و أَكثر إلى الأسَفل ، و كُلمَا فَاحت رَائحة قَذرة كدت أَن أَختنق ، لم أعلم كَيفَ كُنتُ أَحتملُ كَل هَذه القَذارة و العَفن و الرَائحة التي تَقتلُ فَأراً!! ..

يا إلهي مَا هَذا ! ..

ضَحكتُ حَتى سَقطتُ أَرضاً ..

كَومة من شَعر العَانة قد التَهمت فَخذاي ، كَأنهَا كَبتولة من الشَعر المُتآكل أو عَريشة من العنب و تَسلقت جدارَ جَسَدي ، بدأتُ أُفتشُ عن شَيء فقدتهُ بينَ تلكَ الغَابة العَجوز ، شَيء

كُنتُ أُخرجُ منهُ بَولي ، شَيء يَظنُ الرجال أَنه أسَاس الرُجولة ، شَيء لو فقدتهُ لفقدتَ رُجولتَك ..!

لم تَعُد تُقاس الرَجولة بالأَعضَاء التنَاسُلية يا ليلى ، فَهناكَ من الإناث يَحملنَ من الرُجولة ما لا تَعرفهُ الرجَال ، أسماء من الإناث منَحوتة على صَخرة القدر قد عَلمت الرُجولة دَرساً بالبسَالة و الفداء من أجل الحُرية و حُب الوَطن ..

لم يَعُد الوَطن يُصدق تلكَ الأعضَاء ذات الأشكَال المُختلفة اللولبية المُلتهبة المُتصلبة المُتصببة الثَائرة الهَائجة الغَير وَاعية الفرعونية الجائرة التي تُقاسُ بالمَلذة ..

أقفُ أَمامَ المرآة الكَبيرة التي التهَمت الجدار ، مرآة بحجم الكَذب و نفاق هَذا العَالم ، مرآة مُتآمرة عَليك تَكشفُ كُلَ مَا لا تَتَوقعهُ ، تُعريكَ و تُغريكَ و تُريكَ كُل مَا لا تَودُ رُؤياهُ ..

إنهَا صَمتة كَقلبكَ ، و لكنهَا تَنبضُ معكَ حَيثُ بَاتَ ينبضُ نَبضك ، تَسألكُ تلكَ الصَادقة هَل قَلبكَ يَنبضُ في مَكَانه يَا تُرى ! ..

يُجيبُ النَبضُ بكُل عَفوية و لكَأنهُ يعلم مَهارة الكَلام هُنَا و في هَذا البيت : الآن باتَ يَنبض و عندما رَأى تلكَ الفاتنة ، تَضَحكُ المرآة كَأنهَا تَعلم مَا بي من نَبض ..

حسَناً رُبمَا تَأخرت على الاستحمَام يا فَتى .. !

عَليَّ أن أُزيل تلكَ الغَابة بآلة جَارحة أَحذرهَا و تَحذرني ، كَانت قد وَضَعت لي آلة حلاقة حَادة و آلة على الكَهرباء ، أَنا لا أُحبُ آلة الكَهرباء ، و أُحبُ الجارحة لأنهَا تُزيل بلا شَفقة و لا رَحمة ..

سَللتُ تلكَ الآلة كَانت تَلمعُ و يَصدرُ منهَا بَريق خَادع خَارق ، كُانَ لُعَابي يَسيلُ من تلكَ الشَفرة ، أشكُ بأنهَا تنَحرُ تنين و تُردي به في تَنور شواء ثَلاثة أيَام كَي يأكلهُ أَهل قَرية التَنانين ، كَانَ خَيالي يسَبحُ بل يَسرحُ ضَائعاً في تلكَ الغَابة المُتشَابكة بالشَعر ، أبحثُ عن ذَاتي بهَا و هَذه الفتنة جُزأ من ذَاتي ، كَيف لذاتي بأنَ تُقنعَ ذَاتي يا تُرى ! ..

سَللتُ قواي الخَائرة برائحة العَفن ، و مَررتُ بالشَفرة حَيثُ مَكَامن الرُجولة و جَززتُ تلكَ الغَابة المُرعبة ، أَقيسُ الوَقتَ بخَوفي من أَن أُجرح أو أُصَابَ بمكروه ، تَقيسُني الشَفرة بقوة حَذاقتي و مَنطقي المُتمركز على الجَلد ، و تَزحفُ آلة الحَديد على الجَلد تَأكلُ الأسودَ و اليابس ، و تَنزعُ تلكَ القَذارة التي لطَالما لم أَخش على نَفسي منهَا بل من غَابة الدُنَيا القَذرة ..

هُنَاكَ غَابتَان صَغيرتَان تَحت إبطيّ ، أيضاً بحَاجة إلى ثَورة انتَزاع و مُقاومة .

يعر غدول

غَابة كَثيفة ، لا أعلم بأنَ هُنَاكَ غابة كَبيرة بكَثَافتها و بدرنَها و خبثهَا من هَذا الكَوكب ، لا دَائماً عندمَا نَستمع إلى حَثيث الغَابة و مَا يجولُ بهَا من مَخَاطر تَرتَعدُ فرائصنَا كَأنَ هُنَاكَ وَحشٌ يُهددُ براءتنَا ..

يا لي بَراءتنَا كم نَحنُ طُفوليين ! ..

بَراءة تَتَبرأُ بهَا الغُزلانُ لبراءتهَا من أَجل عَيني براءتنَا ، بَريؤونَ و للبراءة قَضية ، و عندما نَستمعُ إلى البرَاءة كَأنَنَا نَستَمعُ إلى الغَابة الكَثَيفة المَحشوة بالحَيوَانَات المُفترسَة ، على حَسَب يَقيني الذي يَغلبُ ظَني لم يَخلق اللهُ أَكثَرَ شَراً و غدَراً و حَقارةً من الإنسَان لأَنَهُ أَعَطاهُ زَمَام الخيرة و العَقل و مَيزهُ بَينَ جَميع المَخلوقات ، فَأحكمهَا بالكُره و الحَقد و عَمرهَا بالخَراب و الدَمَار ظَاناً من نَفسه أَنهُ يسعى في الأَرض إصَلاحاً و هُوَ العَاقُ ابن الأَخبثين ، لا تَستَطيع أَن تُقيم عَليَّ الحُجة أَبداً حَتى لو عَرضتَ عَليَّ كُتباً مُنَزلة من فَوق سَبع سَماوَات ، اذهَب أَنتَ وحُججكَ إلى الجَحيم و أَعرضهَا على إبليس الذي أَوحَى إليكَ هَذه الخُرافَات ..

أَنَا ابنَ العَقل و المَنطق و الوَاقع ..

و أَنتَ ابنَ المَاضي و الأَزل و النُصوص التي لا تُسمنُ و لا تُغني من جُوع ، في الوَاقع كَم سَمعتهُا منكَ و اَنتَ تَصَيح بأَعلى صَوتكَ :

نُريدُ أن نَحيا كراماً ..

و الله لا وَجهكَ وَجهُ كَريم ، و لا تَعرفُ للكرامة مخلداً ، دعنَا يَا رَجلُ فوَ الذي أَوحى إليكَ بأنَ الجَنة لكَ وَحدكَ ولغَيركَ جَهنم ، أَنَنا شَبعنا كَذباً ، شَبعنا من الأقاويل و الأَكاذيب و الروايات و أشباح الغَيب و التنَبؤُ بالمُستقبل و مَا خَبأَهُ المَاضي ، فَالنَاسُ كُلَ يَوم و قَبل أَن تَغسل وَجههَا تَدخُلُ إلى مَوَاقع التَنجيم و الأَبراج لتَتَناول مَا كَتَبهُ لهُمَ ذَاكَ الدَجَال الذي هُوَ في عَين النَاس أَصح خَبراً من كَاهن وشَيخ الحَي..

يا أُمَةَ الخُرافَات و الجَهَل لقد قَتَلْتم بنَا كُلَ حَي ..

نَحنُ أُمم مُقنَعة في قلوبنَا مليون آلهة و في عَقلنَا بليونَ خُرافة ، مَحدود بنَا الخَوف و مُحَاط بنَا من كُل مكَان ، لأَنَنا ولدنَا في مَكانَ و نَبحثُ عن مَكَان غَيره و نمضي كُلَ حَياتنَا نُقاتلُ و نُقتَلُ من أَجل مَكَان مَا على أرض مَا و في النهَاية نَموتُ تَحتَ قسمة هي حَقنَا في الأصل ألا و هُو المكَان الوَحيد الذي يُشبعُ غُرورنَا و غَرائزنَا و دُود الأرض ..

إنهُ القَبر ، مَسكن الحَنين ، الصَندوق الذي ضَمَ أَحبَ النَاس إليَّ ، و أَكرهَ النَاس إلى قَلبي ، المَسَاحة التي تُقَاسُ تَحتَ مَوطئ قَدَمَيكَ ، تَقيسهُ بعَينَين غَائرتَين مَغرورتَين تَرى فيهمَا الظَلام الذي أَوجدتهُ شُرورك ، و أشعلهُ خُبثكَ ، و شَيدتهُ نَهَايتكَ ..

لا تَقلق هي نهَاية الجَميع ..

عَفواً ليسَ الجَميع بَل الأغلب ..

أَغلبُنَا يَعَلم بأنَنَا نَكذَبُ على أَنفُسنَا في كُل يَوم مَئة مَرة أو رُبمَا أكثر ، فَإنَ أَحببتَ بصدق و بعيداً عن الغَرائز الحَيوانية فَأطلق لسَانَ عشقكَ لمن تُحب و لا تَنم حَتى تُخبر من أحببتَ بأَنَك تُحبهُ ، فَرُبمَا لا يَطلعُ عليكَ أو عليه الغَد إلا أنتَ أو هُوَ قد وَسَدهُ التُراب ..

هَنيئاً للتُراب عندما وَدعنا أحبَ أُنَاس لنَا ..

أقَرب البَشَر إلى قَلبي ، بتُ أَشك في أَنَني أَنا السَبب بمن رَحل ، كُلَما أَحببتُ شَخصاً بنهم سَاقتهُ القُبور إليهَا ، فَعلمتُ بأنَ القُبور تَغار من العُشَاق و الأَحبة ، و تَأخذُ أحدهما إليهَا كَي يَموتَ الحَيُ شَوقاً ..

بكُل مَا أُوتي الوَجعُ من عشق و قَبل كُلَ لَيلة يُنَادي القَلبُ بأَعلى ألمه و وحدته و بصوت المُكبل المُبلل بالدموع :

ـ وَاااا شَوقاه ..

وَحيدة القوَافي و السُطور و الأحلامُ و الأَوهامُ ، وحيدة الروحُ و النَفسُ و الجَسد ، وَحيدة الثواني و الأمكنَة و الأزمنة ، و كُل الخُطى شَريدة إلى ما بعد المَوت ..

أنَا المَوتُ و المَيتُ و ما بعدهما ..

و لكن أَنا هُنَا الآن ، في مَكان أُفرغُ به الماء على جسدي ، بينَ جُدران لا تُشبهُ جُدرانَ بَيتنَا المُتواضَع ، إنهُ ذَاكَ البَيت الذي نَبتَ به الحَنَانُ كَمَا نَبتنَا نَحنُ في كَنَف ظلاله ، الشبهُ شَاسع و الحَنَانُ شَاسع ، لا مُقارنة بينَ الأُبهَة و بينَ الحَنَان أَبداً ، لا مُقايضَة بينَ ذَاكَ البَيت و بينَ هَذا البَيت ، بَيتٌ فيه ابتَسَامة يُمَّة لا نُقَايضهُ بأَبراجَ الكَون برمَته ..

إنهَا يُمَّة الكَون و ما فَوقَ الكَون و ما تَحتهُ ، إنهَا يُمَّة و ما أَدراكَ من يُمَّة ، إنهَا خَدي على خَدَها ، و خُذي بقلبي إلى النُور ، كُنتُ أتسَاءل كَيف للنَور أن يأَخُذَ بأَيدينَا إليه !! ..

كَيفَ لنور أن يسوقنَا إلى وَهجه !! ..

مُعادلة لا يَعرفُهَا إلا من عندهُ يُمَّة مثَل يُمَّة ..

أَحملُ شَفرة الحلاقة ذات المَاركة الأُوروبية بيَدين جَفَ في عُروقهما الدَم ، لأَنَنا بعنَا دمَائنَا للطُرقات المُلتَهبة بالخَوف و للبَحر الذي لم و لن يَشبع من ابتَلاع أجسَادنَا النَحيلة ، أَرتجفُ يُتماً و رُعباً ، هَل أَخافُ الآلات الحادة! ..

هَل هُنَاكَ خَوف فَوقَ هَذا الخَوف يا تُرى !! ..

و أَبدأُ أَجزُ تلكَ الغَابة بينَ فَخذيّ و تَحتَ إبطّي ، لم أُجرح ، و لكَنَني مُدمى بالجراح فَو الذي جَردني من كُل هَذا الخَوف ما في جَسدي أو روحي أو نَفسي أو قَلبي من مَكَان إلا و فيه شَرطة دم ..

دمَاء لا تَراهَا أنتَ ، و لكَنَني أَراهَا كُل دَقيقة ، و في كُل ثَانية ، و في كُل جُزء من الثَانية ، و تَمرُ آلة الحلاقَة على جلدي تَنهشُ كُلَ قَذارة الطُرقات ، تَمسحُ عَني تَعبَ الثقل ، و تُلوحُ بيديهَا أنَ وَداعاً ..

أَحملُ تلكَ الشُعور المُفتلة بَكَفين مَغروس بهمَا أظَافر قَذرة ، أصابع مُتعبة تَحملُ شُعوراً مُتعبة ، كَأنما مَيت يَحملُ مَيتاً ، مَيتونُ نَحنُ حَتى و لو ولدنَا مَرة أُخرى ..

و أُلقي بتَلكَ القَاذورات في مصرف بيت الخَلاء كَي لا يَراهَا أحد ، لا زلتُ خَجولاً و لم يَمُت بي الحَياء ، لا زلتُ

يَقظاً أَتنفسُ ما تَبقى من أَمان ، أَنقذني مقص الأظافر حَيثُ بدأَتُ أَقرضُ أَظَافري بتلكَ الآلة ، أغرسُ الحَديد باللحم كَي أَنزعَ الظفر الطَويل و ما تَحتَهُ من مكروبات كَانت تَتَنقلُ مَعي حَيثُ حللت و ارتَحلت ..

المَكان الوَحيد لهَذه المَكروبات هَو المَكانَ الوَحيد الذي تَختفي به فَضَلات الإنسَان ، و لكُل مَادة في هَذا الكَون لهَا صرفهَا الصحي إمَا تَحتَ الأرض أو فَوقهَا أو حَرقاً أو غَرقاً ، حكمة بَالغة تَدعوا للتَفكير بالنهَابة الأبدية و الرَاحة من ذَاكَ المخلوق الذي باتَ وُجودهُ مُزعج حَدَ الغَثَيان ..

كَانت اللحية طَويلة جداً ، مُرعبة إلى أبعد مَا أَتصور ، هَذبتهُا و جَملتهُا و سُبحَانَ من جَماله مَعقود بكَمَاله ، جمَالٌ لا يَحدهُ حَد و لا يَمدهُ مَد ، جمَالٌ يَليقُ بكماله و ذَاته ، جمَالٌ لا يُوصَفُ و لا يُكتَبُ و لا تَأخذُهُ سنةٌ و لا نَوم ، جَمَالٌ يَقظٌ إذا هَبَّ لَب ، و إذا نَظَرَ أعطى ..

هَا هي اللحية تَتَزينُ و تَتَأنقُ ، بينَمَا بَدَأتُ أُنظفُ مَا سَقطَ من جسَدي فَتحتُ المياه السَاخنة في حَوض المَياه ، قُوة مَا بعَدها قُوة ..

البُخار يتصَاعد من حُوض المياه ..

و العَرقُ يَتصَبب من كَافة منَافذ جَسَدي ..

كَانت المَسَامَات المُترامية على الجلد مَسدودة كُلياً ، تَخيل بأن تلكَ الفَتحات الشبه مَرئية لم يتَخللهَا الهَواء منُذ مَا يُقارب ثَلاثة أَشهُر ، و لَكأنهَا بئر مُعطلة و قَصر مَشيد ، بل خَرابة مُشَيدة و حَولهَا جُيوش مُجَيشة بالبَكتريا ، هَذا المَكان بالذَات لهُ خُصوصية الإجرام تَمَاماً ، لهُ من الذَاكرة نَصيباً مَفروضاً ، شَيء لا إرادياً يُعيدُكَ إلى المَاضي أنتَ مُرغَم على الانسياق و النزول تَحتَ رَغبة المَاضي ، لأَنَك عَبد أَباً عن جَد لتلكَ الفَلسَفة المُعقدة ..

أَنتَ كُتَلة من العُقد ، و نَحنُ مَعكَ أَيضاً كَكُرة صُوف مُهملة في علية بيت الجَدة ، لا يَستأنسُ بهَا إلا قطَة الجَدة حينما تَختفي فَجأة و تَتَخذُ صُندوقَ الذكَريات مَسكناً لهَا ، تَضَحكُ بأعلى مَا أُوتَيت الذَاكرة من وَجع عندما تَصل إلى نُقطَة البدَاية ، تلكَ النُقطَة التي تَقول بأَنكَ في الحَقيقة صُندوقاً للذَكريات ..

هَذا المكَان لهُ مَعركة جَميلة و مُؤذية مع أُمي ..

مَكَان بقدر كُرهي لهُ بقدر شَوقي لتفاصيله ، مَكان كَانت تَسحبنَا إلَيه حَنين ، في عَصر يَوم الخَميس كَانَ هَذا المكَان يُجهز كَأنهُ مَكَاناً للتَعذيب ، كُنَا نَهربُ إلى البَيادر التي تَتَخلل البَيوت ، نَتخفى في الخَرابات و البيوت المَهجورة الحَجرية ، في قَلب شَجرة التين نَتسلقُ عَليهَا ظَناً منَا بأننَا سَوفَ نَهربُ من قَدرنَا ، و لكنَ القَدر أَحكم صَفقةَ وَد مع أُمي آنَ ذَاك ، كَانَ عَهد للصَفعات و اللطَمَات مع الأُمهات ، كَانت الحَياة تَقسو على النسَاء و النسَاء المنَفذ الوَحيد لهُنَ هُوَ مَا يُسَمى بَتربية الأطفال أَو بعبارة أَصح تَعذيب الأطفال و الطُرق التَجريمية في تَحويل الطفل من أرنَب أليف إلى وَحش مُفترس منذُ الصغر ..

كَانت الأُمهات آنَ ذَاك تَضَعُ في أُذن وَلدهَا أو جَروهَا أو ثعلبَ مُستَقبلهَا بأنَ تأَخُذَ حَقَكَ بيدكَ و لا تَأتني و أنتَ تَبكي ، فَلا مكَانَ للذي تَذرفُ دُموعهُ في حصني ، فَالحُصونُ يا عَزيزي هُنَا جُلهَا مُحصَنة بالعَذاب و الجَرائم المُسَلسَلة على شَاكلة تَربية ، و هَا هي أُمي أَراهَا من باب الحَمَام تَقفُ و ظلهَا يَسدُ مَا تَحشرج من نُور ، تَقفُ بكُل قواهَا و صَلابَتهَا و نُعومتهَا ..

لا أُحبُ أن أَقولَ لهَا أُمي ، ففي لَحظة وَجع أُقاضى من قبل السَمَاء ، لأَن هَذه الرُوح اعتادت أَن أُلقبهَا بحَنين ، و لكنَ هَذا المكَان لا يَليقُ بالحَنين لأَنهُ مَكان للعَذاب و التَعذيب ، كَانَ سني آن ذَاك ثَمان سَنوات ، الجَلدُ المُطبق على العَظم و كُل مَا في الجسَد من تَفاصيل كَانت رَقيقة و لكَنَ اللهُ زَرعَ في أَضعف خَلقه قوة تَهزُ العَالم في لَحظة ضَعف ، و كَانت تلكَ القُوة المُجَردة من حَقهَا ، كُنتُ أُريدُ حَقي و لكنَ السُلطة لهَا ، كَما أن سُلطتهَا في كَنف سُلطَة وَالدي ، كَمَا أَن سُلطَة وَالدي في حَق سُلطَة جَدي ، و جَدي و ما نَزلَ من صَلبه من عَبيد في حَق سُلطَة الوَطن ، و الوَطن مَنهوب يا رُوح أُمك ، إنهَا دَائرة مُفرغة تَدورُ في فَلك الرُعب و الرُعب و الأَمان في قَبضة الله و اللهُ مُستو على عَرشه بائن على خَلقه يُقسم الرُعبَ و الحُب كَمَا يَشَاء و بالطَريقة التي يشَاء ، أليسَ هُوَ الذي لا يُناقشُ في حُكمه و حكمته !! ..

و أَنا أيضاً و إلى الآن كُنتُ و لا زلتُ لا أُنَاقشُ حَنين في أَمرهَا و لا في إصدار أوامرهَا ، لا في حَياتهَا و لا في مَمَاتهَا ، أَكرهُ كَلمة مَمَات ، كَيفَ روح عَانقت رُوح أن تَفنى ، إنهُ ليس عنَاق لا و الله ، بَل إنهُ حُلول تَام حَتى الحُلول ..

كُنتُ أَهربُ قَبل عَصر يَوم الخَميس مع أشعة الشَمس الحَارقة ، لأنَ المشَاهد آن ذَاكَ كَانت حَارقة ، و لا زالت في الذَاكَرة حَارقة ، حَيثُ إلى أين يا ألهي !! ..

حَيثُ بيت جَدي ، عُلية بيت خَالي ، خَرابة الحَي ، خَلفَ بيت الدَجاج المُلصَق لبيت جَدي ، إلى بيادر الحَي ، إلى الحَرش المُغطَى بشَجر السَرو ..

و تَزامناً مع تلكَ اللحظة كَانت أُمي تَصنعُ حَلوى الهَريسة من أَجل لَيلة الخميس ، لَيلة و لا غَير أَية لَيلة ، كَانت رَائحة الهَريسة تَتَأججُ من كُل مَنَافذ البَيت ، كَانَ البَيت عبارة عَن فَضيحة لأَن مَنَافذ البيت كَانت مُشرعة للجَميع ، منَافذ ذَاكَ الزمَان الجميل كَانت أَروقة بَينَ البيوت ، مَفتوحَة على بَعضها البَعض ، كَانت المَدينة القدَيمة في دَرعا البلد كَبيت وَاحد كُل من فيهَا يَعيشُ بطبقة وَاحدة و مستوى وَاحد ، من العَيب أن أَذكُر ذَاكَ المَثل الذي كَانت تَطلقهُ أُمي بينَ الحَين و الآخر دَلالة على أنَ هَذه المَدينة بيت وَاحد ، و لكن من باب الأَمانة الغَير مَنسية سَوفَ أَسوقهُ لكُم حَيثُ كَانتَ تَقول: إذا أَحد ضرط فُص في الحَارة الشرقية فَأهل الحَارة الغَربية يَشتمونَ رَائحتهُ ..

مَا هَذه الفَضَائح يا إلهَي هَا هَا هَا ! ..

كَانَ في الحَي مَجموعة من الأَطفال الذينَ يَفوقونني قُوة جَسدية ، كَانوا أشراراً بَمعنى الكَلمة ، لا أُحبُ مُشَاركتهم أَفكَاري ، لأَنهُم يَرونَ أَفكَاري عُرضَة للسُخرية ، و لكن كَانت أُمي تَقول عَنهُم رجال ..

أوه من هَذه الكَلمة ، رجَال ! ، و لكنهُم مُجرمين ، و حَتى لَعبهم فيه أَذية لأَنفسهم و لغَيرهم ، كنتُ أَتنفس الصُعداء كُلما لاحَت لي وُجوههم المُرعبة و أسمَائهم المُخيفة ، كَان من بَين تلكَ العصَابة الغَير مَنطقية شَخص يُلقب بالذيب و آخر يُلقب بالدَبسي ، كَانَ كَف أحدهم إذا هَبط على وَجه أَحد آخر يُعمي النَظَر و يُفقد البَصر ، في الحَقيقة قَد صُفعتُ ذَاتَ خَميس بالغلط ..

أَمرت أُمي تلكَ العَصابة أَن أُسَاق إليهَا من غَير أَن يُؤذيني أحد منُهم ، كَانَ الذيب رَئيس العصَابة يَومهَا لأَن الدبسي كَانَ في زَيارة إلى بَيت خَالته في منطقة المَحطة من مدينة دَرعَا الجَديدة ، و كُنتُ أَن قَد هَربتُ خَوفاً من الحمَام الذي سَوف تَجعَلهُ لي أُمي مَكَاناً للعَذاب و التَعذيب ..

المُهم صَديقُنَا الذيب قالَ لأمي وَقتهَا بَعدما وَعدتهُ أُمي إذا أَحضَروني إليهَا حَياً أُرزق و من غَير أية إصَابات أن تُقدم للعصَابة بقيادَة الذيب ذَاكَ الطفل الشَرير صَحن من الهَريسَة يَكفي لَعشرة أشخَاص ..

هُنَا الذيب أَجابهَا : عُونك خَالتي أُم مَيسم ..

يا سَلام على الأدب يا قَليل الأدب ، أصلاً كَلمة قَليل أَدب هَذا الوَصف بحد ذَاته وسَام شَرف لكَ ، فلقد كَانَ هَذا الطفل بالتَحديد مَصدر شَر للحَارة و ضَواحيهَا ، فَكم من بيضَة سَرق من أَكواخ الدَجاج ! ، و كم من حمَار عَذب بالعُصي و الحَديد ! ، و كم من شَجرة رُمَان و تين و تَوت و جَوز غَزا على حَسب شَريعته ! ، و كم من رَأس طفل شَجَ و أَدمى ! ..

كَان قمة في الشَيطنة و الأَبلسة ، مَا شَاهدتهُ يَوماً إلا وَ حَافياً يَمشي في الشَوارع التُرابية و الشوكُ و الحَصَى تَتأذى من قدمه المُتشققة و المُخضَبة بالأَتربة ، و حتى الذَاكرة مُتعبة عندما تَرى مَشَاهدهُ المُدمية القاتلة المُؤذَية ..

أذكُر عندمَا كَان يَسيرُ من الحَي كَان يمشي خَلفهُ كَتيبة من المَافيا الذي يَتعلمونَ فُنون الشَر و مَداخله و مَخارجه ، كَانَ

يَتَكلمُ بصوت عَال جداً ، صَوت مُؤذي و مزعج يَخرجُ من بينَ شَفتيه كَلمَات الكُفر و شَتم الرَب بلا حَياء و لا خَجل ..

بأمر من حَنين تَتَحركُ الدَورية في أصَقاع الحَي ..
يَنتَشرونَ كالدبابير القَارصة القاتلة المُميتة ، القضية لَيست وُجودي أو عَدم وُجودي ، بل هُنَاكَ صَحن كَبير من الهَريسة يَكفي أَطفال يأجوج و مأجوج ، كَانوا مُستَعدين أن يَبيعوا أَنفُسَهم من أجل قطعة حَلوى أو قدر مُمتلئ بالمُشمش أو الجَوز أو التين ..
هَؤلاء العَفاريت يَعرفونَ كُلَ الحَي ، فلا يدَركُهم مَخبأ و لا يَفوتهُم وَكر ، هُم أهل الوَكور و النُقوب ،بتُ أقتنع بأنَ هَذا العَالم يَعيشُ و يَموتُ في سَبيل ثُقب فَمنهُ خَرج و إليه يَعود و منهُ يَخرج إن شَاءَ الله ..
ثُقبٌ وَاحد فقط أو مَلجأ وَاحد فَقط كَانَ في بيت خَالي ، كَانَ خَالي يَرفعُ الطَابق الثَاني من أجل أن يَتزوج أولادهُ الثَلاثَة ، و كُنتُ رَابعُهم حَيثُ أُريد مَكَانَ أَمان أَهربُ إليه عَصر الخميس و من حمام يَوم الخمَيس ..
و كمَا تقول الأُغنية المَعروفة التي صَنعت ضَجة في زَمن الحُروب و المَوت أكثر من الحَرب و المَوت بحد ذَاته :
هَلا بالخَميس !! .. هَلا هَلا ..
بدي ألعن أبو الخميس على أَبو يلي أَسسوه ..

كَانَ الذيب يكشفُ آثَار الطَريدة على بُعد مئة كيلو متر ، و كنُت أرنباً مُلطخاً بالخَوف في غَابة الحَي المُوحشة ، لقد رَفع الذيب كَافة صفارات الإنذار في كُل الحي ، صَفارات خَاصَة به يُطَاردُ بهَا صَيدهُ ، فَرائحة الهَريسَة في مُخَيخ دماغه أخمدت تقاعسه و جَعلتهُ فَهداً يَتحسسُ عن رَائحتي ، لا أعلم كَيفَ أُوحي لهُ بأنَني أَفعى تَسعى ، و إنما كَانَ هُوَ من يسعى و أَنا في جُحر بيت خَالي الذي على قَيد التَشييد .. رَفعَ رأسهُ عَالياً و رآني مُلتفاً حَولَ بَعضي كَصوص يُريد أن يَنجو بنفسه من مخَالب قط شَره لدمَاء الصيصان ..

ابتَسمت عَينَاهُ بمَكر ، كَانت بينَ عَينَيه شَرارة تَقدحُ حَتى يَخرج منهُمَا سُم الخُبث ، إلى هَذه اللحَظة لم أَنس الشَرخ الذي شَج جَبينه الأَيسَر ، إنهُ شَجٌ قَديم جداً مُخاط بخَيط رَديء بينَ القُطبة و القُطبة يَكمنُ شَرخٌ ظَاهرٌ يُرعبُ قَبيلة.. وَجهٌ قَبحهُ اللهُ فوقَ قُبحه ..

وَجهٌ ولدَ للرُعب و إخافة الخَلق ، يَنمو بلا هَوية و لا قَضية ، إنهُ آني التَفكير لا يَخرجُ تَفكيرهُ عن إطَار هَذه اللحَظة ، و إن خَرجَ فَسوفَ تَحدثُ مُصيبة رُبما تَزدَادُ أَعداد الضَحَايا في كُل ثَانية جَريمَتان ، لم أَنس مَا قَالهُ لي بصوته

المُتحشرج بالبكَتريا ، إنهَا خَامة المُجرمين عندما يَتحدثُونَ مع الضَحية قَبل الذَبح ، صَوت الجَائع لطَمع الهَريسَة لعنةَ الله عَليه و على كُل صَواني الهَريسة :

شُو يَا جَردون ، يلا أنزل بالمليح ، لأَنك إذا مَا نزَلت رَاح أَحممك بتَراب الجَبلة ، يا فَار أَمك بدهَا تَحممك و أَنت غاطس بالمَجاري !! ..

أنَا فَار !! ..

لم أستَطع أن أردهَا عَليه أَبداً ، إنني في الحَقيقة إذا نَطقتُ بكَلمة سَوف تَكون جنَازَتي هَذا المسَاء و الدَعوة عَامة ، إنهُ مُجرم و لا يَرحم ، أمسَكني من طَرف قَميصي القُطني بشَدة ، لَقد خفتُ على القَميص من أن يُمزق ، لأَنني سَأقع مع أُمي بمُصيبة أُخرى الهُروب من الحمَام و تَمزيق القَميص ، بعُيون الأرنب الذي تَبلل بدموعه قُلتُ لهُ :

أفلتني سوف أَمشي معك ..

لا أعلم كَيف هَوى على وَجهي كَفه التي تُشبهُ كَريك عُمال المنَاجم ، يا فَرحة قَلبي لو رَأيتُ مَا رَأيتُ يَومها ، لَقد شَاهَدتُ هَذا الكَون على شَكل قَوس قُزح يَلف و يَدور و عَصَافير تُزقزق و السَماءُ مُبتهجة و الأرضُ سَعيدة بنور

رَبهَا و المَلائكة تَحملُ مَزامير النَصر ، كَانت صَفعة مُوفقة جداً جَعلتني أصحو من طُفولتي من ذَاكَ الوَقت إلى وَقتي هَذا ..

أسيرُ أَمَامهُ كَما يسيرُ المَحكوم عَليه بالإعدام إلى المَشنقة ، لو تَركتهُ يُمزقُ قَميصي لكَانَ أَشرفَ لي ، لو ضَربتني أُمي لكَانَ أَرحم من صَفعته التي تُوقظُ مَيتاً من قَبره ..

كُلمَا تَقدم بي إلى البَيت كُلمَا فَاحت رَائحة الهَريسَة و لوَح صَابون الغَار و رُطوبة الحمَام ، كُل شَيء كَانَ جَاهزاً على حَسَب التَوقيت المَحلي للنَظافة ..

كَانت أُمي تَضَعُ بأحمال ثَدييهَا على حَافَتي البَلكونة ، كَانت وَاثقة جداً بقُدرات الذيب ، حَيتهُ أُمي بيدَيهَا و هي تُلوح لهُ من بَعيد ، و لكَأنهَا شَريكة مَعهُ بالجَريمة ، و لكَأنهَا كَانت تَسيرُ معهُ في غَزاوته و سَرقاته و حُروبه اللصوصية ، و لكَأنهَا قَائد عصَابة أُخرى و بينهما إتفاقية ..

كَانت أَفواه العصَابة يتَقاطرُ منها لُعاب لزج يمَيلُ لونهُ إلى الصُفرة ، تُؤشرُ لهُم أُمي أن أحضروهُ لي ..

بَيد وَاحدة كَانَ يسحبُني على السُلم الحجَري إلى الطَابق الثَاني ، رَائحة المَوت تَغلبُ رَائحة الهَريسة ، ظَهرَ شَبح

أُمي و ظَهرت أَنيابهُا من خَلف شفاهها ، يُعد الحمَام لهَا أحد أكبر أَركَان التَربية ، كَان يَقول لهَا الذيب :

خَالة أُم مَيسم بدك مُسَاعدة ! ..

يَقصد أن يَدخُل معي إلى الحمَام ذَاك الذي بينهُ و بين المَياه عَداوة ، و بينهُ و بينَ الصَابون حَربٌ منذُ أن وَلدتهُ أُمهُ ، كُنتُ أتسَاءل هَل الذي أَنجبتهُ أُم من لَحم و دَم أو ثعَلبة بَرية مهنتها مُطَاردة الظبيان !! ..

ضَحكت أُمي و قَالت لهُ :

في الأَيام القادمة أُريد المُسَاعدة ، أَما الآن أُتركلي إياه أنَا بتصَرف !! ..

ضَحكَ الذيب حَتى بدَت نَواجذُهُ عَفواً بل حَتى بدَت مَخالبهُ ، و رَد مَا أَمرت به أُمي :

عُونك خَالة أُم مَيسم ، أي وَقت أَنا بالخدمة ، أَلف طَلب مثَل هَالطَلب ..

كَانَ كيس كَبير على عَتبة البيت ، يخَلدُ به قطع الهَريسة التي هي من حَقنَا ، لقد سُلب حَقنَا في لحَظة غَباء مني ، و عَرفتُ بعَدهَا بأنَ الذي سَوفَ تُقررهُ أُمي سَيكون شَاء من شَاء و أَبى من أَبى ..

إنها إرادةَ السُلطة بعد الأَب ، في هَذه المَدينة المُسورة بالأَطفال المُجرمين إذا الأُمهَات أردنَ الحَياة فَلا بُد أَن يَستَجيب القَدر ، و وراء كُلَ مُجرم عَظيم أُم مُطبلة و مُزمرة ، و كُل أُم تَرقُص على حَسب مزمَار تَربيتهَا ، فالطفل المُجرم هُنَا لهُ مُستَقبل عَظيم جداً ..

أصغر طفل شَرير سَيكون لهُ مُستَقبل بتَهَريب البَشَر أو المُخدرات أو الحَشيش ، هَذه المَدينة تَعرفُ كَيفَ تَرعى أبنَاءهَا ، نُطَلقُ على من فاقَ كُل أَنواع الشُرور بوصف : كَسَار ..

خَوفاً على مشَاعر المُجرم ، و الشَعب مَاذا عنهُ !، الشَعب يا عَزيزي يَلعن أبو مَشَاعره ، المُهم أن تَسير البلد و تَرتَفع البنَايات بَشَكل غَير قَانوني و على حسَاب اقتصَاد البَلد ، فالحُكومة حَرامية و ثَلاثة أرباع الشَعب تَرعَرع على اللصُوصية ، فلم يَعد أحد يَلجأ إلى البُوليس إن حَدثَت مُصيبة ، من الرجُولة أن تَأخُذ حَقكُ بيدكَ ..

و إن لم تَأخُذ حقكَ بيدكَ فَأنتَ لستَ رَجُلاً ..

و هَا أَنا أَعودُ من جَديد ذَاكَ الطفل الذي أُوتي به إلى أُمه كَي تُجردهُ رُغماً عن أَنفه و قَسَاوة رَأسه إلى حَوض المَياه ، و من ثُمَ أُفرك بقطعة من الليف البَلدي الذي قَطعتهُ أُمي من شَجرة عَريشَة الليف التي تَمتدُ حَولَ البَيت ، و بصَابونة مُضَلعة تُحركُ بكُل قواهَا مسَاحَات جَسَدي ..

و رُغم كُرهي لتلكَ اللحَظَات القَاسية ، رُغم مَحبتي لأَبطَالهَا ، أُمي و أَبي و إخواني و مَجنون القَرية الذيب ، هُنَا كُل شَيء مُرتَب على حَسب الرَاحة النَفسية ، إنهُ ليسَ مَكَان للاستَحمام بل إنهُ مَكَان للاسترخاء و قَضَاء ثَلاثة أَيام للعُطلة ، هُنَا و رُغم الجَنة التي قَد أَحاطَتني إلا أني لا أَستَهويه لَفراغه من رَائحة صابون الغَار الحَلبي و ضَغط نَار البوتوجاز ، و صَوت المَاء عندما ينَصبُ في إنَاء الحَديد قَبل التَسخين و لَصوت حَنين ..

آه من صَوتهَا عندما تُنَادي : يا يُمَّة ..

سَمعتُ من خَالتي أنَ الله سَوفَ يُعوضكَ بأحبة ، فاللهُ لا يَتركُ خَلقهُ ، أَليسَ هُوَ الذي قَال :

لا تَأخُذهُ سنة و لا نَوم !! ..

ألقت بي الأيامُ على مَهب مَحَطة قطَار ، كَانت القَافية تَنتَظرُ بي ، أو لعَلي أَنتَظرُ بقدري ، كَان بإمكَاني أن لا أَستَريح ، كَأن بإمكَاني أن لا أجلس في تلكَ المَحَطة ، كَان بإمكَاني أن أتخذَ أَحد الحَدائقَ مَكَاناً لي ..

و لكَنَ الله يَحتفَظُ بالأمَاكن لأَهلهَا و كَمَا يَحتفظُ بالقُبورُ لأجسَادهَا ، لعَلهُ خَير ، و الخَير الكَبير أن المَاء كَانَ مُتَساوياً على دَرجة حَرارة جسَدي ، يَنسَكبُ فَوقَ رَأسي بلا وعاء أَغرفُ به ، يَهبطُ المَاءُ حُراً كَريمَاً عَزيزاً كَزخَات المَطَر في يَوم رَبيعي ، يتَقبل جلدي تلكَ الرَشَقات المُنهمرة ، يَهبطُ قلبي كُلمَا سَالَ الشَامبو مُتَسللاً من عُنقي حَيثُ خَصري حَيثُ خُنصر قدَمي حَيثُ يهَوي إلى مَنفذه الذي يُشبهُ منَافذ الأدمغة العَربية ، تلكَ الأَدمغة التي ابتلعت كُل مَا هُوَ غث و سَمين و تَركت كُل مَا يُفيد بنَاء العَقل الإنسَاني ..

أربعونَ دَقيقة لم أَشعر بهَا و أَنا تَحتَ المَاء ، تَمَاماً كهَذه الحَياة التي سَارت و سارت و أَنَا لا أَعرفُ كَيفَ مَرت أو لا أَعرفُ كَيفَ أنَا مَررتُ بهَا ، و لكنَني مَررتُ و مَرت و انتَهى كُل شَيء ..

أنَا أقفُ أَمَامَ فَاصل زَمني يُسَمى بَرزخ الجَمال ، فَاصلٌ يَفصلُ قَافية المَاضي عن قَافية الحَاضر و لعَلهَا سَوفَ تَفصل قَافية المُستقل على حَسَب التَجربة ..

سَوفَ تَموتُ بينَ الفَاصل و الفَاصل حينما تعلم بأنكَ فَأر تَجارُب خُضت هَذه الحَياة في مَخبر أنتَ مُرغم أن تَكونَ به رُغماً عن كُل مَا تَملكه ، تَسأل نفَسكَ دَائماً :

هَل يَا تُرى أنتَ مُلك نَفسك ! ..

الإجابة قَاتلة جداً ، و مُستعرة بالتَخبُط الذَاتي و التَصنُع و تَسليم ذَاتكَ للآلهَة ، أنتَ و الإجَابة و الآلهة و هَذا التَكوين لَيسَ بحَاجة لإدراك ، بل بحاجة لاحتواء ، لأَنَ البحث عن الإدراك هُوَ نَوع من الشَك ، و الاحتواء هُوَ اكتمال و رَاحة..

فَمنذُ أن وُجدت رَاحت النُفوس و تَضمخت القُلوب بالإيمَان اشتَعلت الحُروب و الذَبح و القتل و النَفي و الطَرد ، إنهُ الجُنون بعين ذَاته كَي يستَقر قَلبكَ يَجب أن تُقاتل في سَبيل ذَاكَ المَخلوق الذي يُسَمى الرَاحة النَفسية ، و إذا جَلبت التَعب النَفسي لَقلبكَ سَوفَ تَتركُ سَيفكَ و تَلجأ إلى قَلبكَ كَي

تَتَخلص من هَذا الصَدأ المُقرف ، و أَنا هُنَا قَد تَخلصتُ من كُل مَا يُؤذي جَسدي ..

أُوقفُ المَاء الذي يتَقاطر على جَسدي ، ذَرات من المَياه تَتَفرقُ و تَتَلاشَى ، يقضي على تلكَ الذَرات منَشَفة نَصَاعة البَيَاض ، و أَخرجُ من حَوض المياه كَيوم وَلدتني أُمي ، مُعَافاً سَليماً نَظيفاً تتأججُ مني رَائحة الصَابون المُعطَر و الشَامبو الغَريب الأطوار ..

أرتدي ثياباً على مَقاسي ، جَديدة و نَظيفة ، إنهَا قطع باهظة الثَمن على كوكب أغلى مَا بهَا هُوَ الإنسَان ، و أُلملمُ تلكَ الفَوضى التَي خَلفتُهَا كَي أُعيدَ كُلَ شَيء إلى مَكَانه ..

أوه الحمدُ لكَ يا الله عَلى هَذا العَطَاء ..

خَرجتُ من ذَاكَ الباب الذي دَخلتُ منهُ ، و لكَأنني لستُ أَنا ، كَان هُنَاكَ مرآة كَبيرة حَال خُروجكَ من الحمَام ، مرآة تَرى بهَا طُولكَ جَسدكَ ملامحَكَ دَقتكَ تَوقيت نَظَافتكَ و المسَاحة الشَاسعة لسَعادتكَ ، كَانت المرآة لهَا لسَان و لكأنهَا كَانت تَقول :

أَهلاً و سَهلاً بكَ هَل أنتَ سَعيد الآن ! ..

عَبرتُ عن ما في قَلبي ، بَادرتُ تلكَ الآلة الزَمنية سُؤالهَا قائلاً ، نَعم و بكُل سَعادة و بهذه الأُبهة من النَظَافة ، قَاطعت ذَاكَ الانفصام تلكَ المَرأة الجَميلة ، نَعم هي كَبيرة قَليلاً و لكن شَباب الحَياة يَظهرُ في رَاحة عَينَيهَا ، عَينَان وَاسَعتان كَأنهمَا بُسَتان ، يتوهُ فيهما عَاشقٌ و يُقاتلُ من أَجلهمَا فَارسٌ ، عَينان مُضَرمتان بالهَيبة مَحروسَتان بالمَهَابة مُكابرتَان رغمَ بَعض التَجاعيد المُتسولة حَولَ جَفنَيهَا ، قُلتُ في قعَر قَلبي لا يَضرُ جَمَال البُستَان أَصوات الغُربان ، لا يَضرُ البدرَ ظَلام الليل ، كُل شَيء مُتمم لبعضه ، قَالت بتبسُم :

هَل انتهيت يا بُني ..

بعبرية اللغُة أوقعت كُل رَايات العُروبة ، إنهَا لَيست قَضية وَطن و لا قَومية ، نَحنُ مُصَابونَ بأَزمة أَخلاق و تَربية ، هُم مُصَابونَ بحَالة أَدب و خُلوق عال ، نَحنُ لسَنا بحَاجة لدروس دين و لا مُدَرسين ، نَحنُ بحَاجة لتَصحيح مَفاهيم و رَبط العلم بالأَفعال ..

نَعم لَقد انتهَيت ..

كدتُ أن أقول لَها الآن بَدأت ..

و لكنهَا سُرت جداً ، شَعرتُ بذاكَ النُور قد تَخلل إلى صَدري و اختَرقَ جميعَ أوصالي ، تَهافتت في القلب هَزة فَرح لم أَشعُر بهَا منذُ أن خَرجتُ من وَطني ، عَادَ لسَانَ الوَجد يُخرجُ لي سألته هَل يَا تُرى عُدتَ إلى وَطنكَ فعلاً! ..

هَل الوَطن تُراب فقط ! ، أو ذَاكرة ! ، أو مَاضٍ ! ، أو غَير ذَلكَ ! ، عَرفتُ بأنَ الوَطن فيمَا بعَد هي أرواح رَقيقة ناعمة خافتة نُورانية ، و قُلوب شَاسعة وَاسعة مُسَامحة أرجوانية ، شفاه سَعيدة مُبتَسمة مُتهامسة أقحوانية ، وَطن كَبسمة تلكَ الأُنثى التي سَرقت كُلَ لُبي في لَحظة ..

و كُلَما يذكُرهَا قَلبي تطلُ من جَديد من خَلال الكريدور ، كَشَمس تَمددت عَبرَ السُهول النَائمة ، تَطرقُ أَقفالَ الأقحوان أن حَيَّ على النَهوض ، تَنهضُ الحُقولُ على صَوت المعَاول و جَرارات الخَشَب التي تَجرُهَا الخُيول ..

هَذه الشَمسُ أصيلة كَأصَالة خَيل مَعرُوف النَسَب ، تَهبُ و تَدبُ و تَزحفُ و تَقلعُ و تَسكُن و تَقتلُ قُلوباً لا خَلاقَ لهَا على الحُب :

هل انتهَيتَ من التَنظيف ! ..

إن إعَادة الشَمس السُؤال فالسمَاء فَيه نوعٌ من التَأكيد ، و لكن الأُم أراحت لسَاني من تكرار الإجَابة :

نعم ، لقد انتهى ..

كَانَ موقفاً مُهذباً ، كُنتُ أقفُ على كُل المَواقف المُرتحل أهلُهَا ، كُنتُ أنَا الرحلة على قَارة جَمَالهَا ، أتنقلُ من جفن إلى خَد و من شَعر مسَدول إلى عُنق ممشوق ، و هَكذا كَانَ الأرنَبُ مُتمسمراً ، هَذه أولُ مَرة يَخرجُ من خُلده منذُ أن فَارقَ رَحم أُم الأرَانب ..

أَرنبٌ أنَا مَسدولَ الأُذُنَان لا أعرفُ أينَ وُجهتي ، شَاخصَ العَينَان قَد ضَللتُ قبلتي ، سَحبت الشَمسُ شَهيقَهَا الرَبيعي و قَالت :

أُمي قد أَعدت لكَ غَداءً رَائعاً يَميلُ إلى الطعَام الشَرقي ، و سوف تَكونُ سَعيداً به أنَا مُتأكد جداً ..

أخذَ الخَجلُ يَسري مَعي في عُروق جَسدي حَتى ظَهر ذَلكَ على وَجهي ، لم أَقُل شَيئاً لأنَني في الحقَيقة لا أعرف ما هي الطَريقة كَي أَرُدَ على هَذا الكَرم الغَير مُتوقع ، ولكنَ الأُم الرَائعة أَكملت مَا بدأت به الشَمس :

سَوفَ تَكون سَعيداً ، زَوجي سُرَّ كَثيراً عندما عرفَ أنَكَ تُتقنُ العبرية ، و سُرَ أكثر لأنكَ حَللت ضَيفاً في بيتنا و قَبلت دَعوتنا ..

أمسَكت الشَمس كَفي ، شَدت أصَابعهَا جَيداً كي لا أُفلت من حَرارتهَا ، لسعت أطرافَ مَشَاعري ، جَلدتني بتنور ألسنتهَا: تَعال معَي لا تَقف مَكانك ..

كُنتُ أَسيرُ خَلفهَا كَأنَني طفل خجول ، طفل اعتاد على الإمسَاك بطرف ثَوب أمه ، يَتخفى خَلفَ قدمَيها كي لا يَراهُ الغُرباء ، يَضَعُ عَينَيه أرضاً ظاناً أنهُ سَيُفلت من مُراقَبة الغُرباء لهُ ..

أنَا الغَريبُ هُنَا و هُم أَهل البَيت ، كَانَ المَمَرُ مَفروش بالسَجاد الإيراني ، و الجُدران مُكتحلة بالصُور المُعتقة ، و كَانت الشَمسُ تُرددُ :

لا تَخجل أرجوكَ ..

إنهُ طَلب من المُحَال تَلبيتهُ آنسَتي ، إنهُ أَمرٌ غَريب جداً ، إنهُ حُلمٌ أو لعَلهُ وَهم ، و لكن ذَاكَ الحُلم أوصَلنَا إلى صَلاة مُضَلعة ينحدرُ من سَقفها ثُرية كريستالية غَريبة الأَطوار ، و النُوافذ طَويلة و نَظيفة و الستَائرُ خُلقت لهذه الجُدران

العملاقة المَكسوة بالوَرق المُذَهب ، و طَاولة غداء قد فُرشَت بمَا لَذ وَطاب ، و السَيد الكَبير قد اتَخذ لنَفسه مَكَاناً بينَ الكراسي ، و في حَال رُؤيته لي وَقفَ بكُل احترام و مَهابة مُرحباً بي ، كَانَ كُل شَيء سَعيد في وُجودي ، كُنتُ أنَا و وُجودي نَشعرُ بالحيرة و الغَرابة :

أَهلا و سَهلاً بكَ بُني ، تَفضَل إلى هُنَا عَزيزي ..

جَلستُ بجَانبه ، كَانَ به من رَائحة الأبوة ، رَحمة ذَاكَ القَلب الذي كُنتُ أُنَاديه بوالدي ، آه يا والدي كَم أنَا في قمة الشَوق لكَ يا سَيدي ، هل لي أن أحتضن طَيفكَ أبتاه ، هَل يَكفي أن أحتضنُ الذَاكرة و المَاضي ، هَل هَذا يَكفي فعلاً ! ، رتب على كَتفي السَيد الأنيق ، وقَال :

لقد صَنعت لكَ وَالدتك نَعومي المنَسفَ و المُقبلات و الحسَاء الشَرقي ، أنَا مُتأكد بأنَكَ سَتكونُ سَعيداً ..

هَذا خَبرٌ سَار فعلاً ، ابتهجتُ حتى اتسع صَدري لكُل ما سَمعتُ من تَبجيلٌ و ترحَاب :

في الحَقيقة دَعني أقول لكُم جَميعاً شُكراً جَزيلاً ، لا أعرف كَيفَ سَأرُدُ لكُم هَذا المعروف الذي بالفعل لا يُرد مَهما فَعلتُ

مَعكم ، دَائماً اللهُ لهُ جُنودٌ يُحبونَ الخَير و يَسعونَ من أَجل الحُب كَي يعم السَلام بينَ القُلوب ..

جَلسَ الجَميع حَول الطَاولة ، استمتعَ السَيد الكَبير بسماع هَذه الكَلمَات باللغُة العبرية ، ابتهجَ الجَميع على لَباقة و انتقاء الكَلمَات ، و لكن فعلهم قد فاقَ كُلَ الكلمَات و فلسفتهَا في الحَياة ، هُنَاك بَصمة سَتدرُكَ بعد أن تَضَعهَا على وَجه ذُو حَاجة بأنهَا حَياة ، هُنَاكَ بَسمة بَعد أن تَزرعهَا في وَجه من تُحب بأنهَا حَياة ، هُنَاكَ أنَا بينَ كَومة هَذا النُورُ أحتسي الحسَاء :

هَل أعجبكَ الحَسَاء بُني ! ..

كَانَ يَسيلُ إلى معدتي التي لم تَعرف سوى طعام المُعلبات على مَدار ثَلاث أشهُر :

شُكراً جَزيلاً ، إنهُ رَائع بالفعل ..

الأرُز و الدَجاج و قطَع اللحم و رَائحة التَوابل و السَلطَات و الصُحون الوَاسعة و المَلاعق و السَكَاكين و الشُوك المَحفور بإتقان تَشدُكَ على أن تَلتهم كُل مَا في الطَاولة ، لَقد كُنت آكُل من غَير وَعي و لا خَجل ، كَانَ الجمَيع يَنظرونَ إليَّ و إلى الشَره الذي حَلَّ بي و هُم سُعَداء :

بُني هَذا إن دَل ، فقد دَل على أنَ الطَعام أعجبك ..
كَانت قطعة من اللحم في فمي أَمضغها بينَ أسناني ، و فُتَات الأرُز تُلاكُ في فَمي بلا أية شَفقة ، لم أنتَظر حتى تَنزل اللقمة في معدتي كَي أرُد على تلكَ المَرأة :
في الحَقيقة إن طَعمهُ لا يعَلو عَليه طَعم آخَر ..
لقد ضَحكوا بالفعل ، ضَحكوا على هَذا الموقف المُحرج ، لم أعُد أشعُر بشَيء فعلاً ، فَالمشَاعر عندي مسَحوب منهَا كلسيوم الخَجَل ، و أنَا و بكُل طَاقتي أسحبُ الصَحنَ تلو الصَحن حتى أضحت الطَاولة هَباءً منثوراً ..
كُل بُني هُنَاكَ الكَثير من الطعام ، لا تَقلق ..
لم أُكن أستمع لمَزيد من الكَلام و الترحاب ، فَكَانَ هُنَاكَ مَا يشغَلني بالفعل ، هُو الطعام الشَهي و دَقة الذَوق الرَفيع ، و هَذا الانفتاح المُغلف بالشَره ..
انتهيتُ ..
و المُصيبة أن جَميع من كَانَ حَولي قد انتهى من تناول الطَعام قبلي بنصف سَاعة ، سَاعة كَاملة و أنَا تَحت تَخدير هَذه الأطباق الشَهية ..

جميع النُصوص تُكتَب إلا ذَاكَ الجَمال المُغبر بالطُهر ، جميع الشَعر يُوزنُ بميزان فُرسان اللغَة إلا لُغة العُيون المَجبولة بالنُور ، إنها نُور على شَاكلة أُنثى تُدعى أنتِ ..

أنتِ وَحدكِ هُنا في هَذا الصَرح المُطرزُ بالمَهابة مُكتملة المهابة ، أيةُ مهابة هَذه و أنتِ تَنقُلينَ الأطباق بكف لم تَعتد حملَ الأطباق ، بتُ أتمنى أن أكون أو لا أكون ..

يا لَيتني كُنتُ طبقاً أُحملُ إلى السكتة التي تَفصلُ بينَ نَبضات قَلبك ، يا لَيتني كُنتُ شَوكة أُغرسُ في حدَائق وردك ، يا آنسة الزَنبق يا كُلَ جبلَ الزُهور ..

هل أُسَاعدكُم آنستي !! ..

ضَحكَ البَدرُ حتى بانَت الفضة في سَقف حَلقه ، كَأنَ ثُريات من الياقوت و تدلت و تعربشَت و تشابكَت و تَشَاكست ، كَأنني أنَا ذَاكَ الطفلُ الذي تسلقَ أغصان الزيتون و الرمان و الجوز و التين ..

كَأنها هي جَارة الوادي رَاعية الماعز التي تجوبُ بقطيع ثَدييها درب الذَهب في أحشائي :

لا عَزيزي أنتَ مُتعب و على ما أظن بأنكَ قَد أُصبتَ بالتُخمة ..

ابتسمَ وَجهي في وجهها ، تعرقَ الجَبينُ لقلة حيلتي أمامَ أدبها ، يا آنسةَ الهَوى أنا من سرتُ على النَوى و قَطعتُ مخالبَ الدَهر حَبواً إليك ، يا آنسة البداية الزَاخمة بالمَطر أنا المَطر و أنت حُبلَى بَي منذُ أن رَأيتُ شَبحَ عَينَيك ، يا قطعةَ من الفَردوس الذي أخشَى أن تُدنسهُ نَظراتي لك فَأنا مُصَابٌ بك ..

أجلس إلى حين يُحضَر الشَاي ..

تمسمرتُ مكاني بجَانب ذَاكَ الكَاهن العَجوز ، إنهُ أبوهَا انحدرت من صَلبه حتى استقرت في رَحم تلكَ العَجوز ، هل أتى هَذا القَمرُ حُباً ! ، أم أنهُ انكفأ عبثاً ! ..

لا عَبثية في مَلامح مَلائكة الله ..

لا تَأتي هَذه الجواهر إلى من صَلب الصخور المُستَقرة في قلب الجبال الراسَية ، إنها مُجوهرات رَاسية ما لمحها بشر إلا و سَبح بحمد الله شُكراً ..

شُكراً لكم سَيدي على هَذه الوَليمة الرائعة ، في الحَقيقة كان طعاماً شَهياً ، و لم أذُق طعاماً في كُل حياتي كَهذا الطعام الشَهي ..

ها ها ها ..

هذه عائلة مُصَابة بفيروس الضَحك و التَبسُم ، ما لمحتُ أحداً منهُم إلا و شفاههُ تتمطى بشراً و سُروراً ، وُلدوا من رَحم الفَرح و أنجبتهم الحَياة و هي تَضَحك :

يا بُني على ما أعتقد بأنَ هُناك ألذ و أشهى من هَذا الطعام

تَعجبتُ من رده الجميل و رُغم غرابته سَألتهُ :

رُبما ! ، و لكن ما هُو الطعام الذي تَقصدهُ !! ..

أعادَ من تَرتيب جلسته تنحنحَ و شَربَ قَليلاً من الماء شَعرتُ بأنهُ سَوف يُلقي علي مُحاضَرة ، و جسدي بَدأ يَطلبُ سَريراً لُيريح ما به من تَعب ، و لكنَ الكاهن كَشَفَ أمري :

بُني العَزيز ، رُغم أني لا أعرفُ اسمكَ إلا أني أشعرُ أنا و كل العائلة بأنكَ وُلدت في بيئة طَيبة ، و هَذا الوجه الطَيب يُخفي خَلفهُ كَثيراً من الذَكريات ، أعلم بأنكَ مُتعب من لظى الطَريق ، و لا يُوجد في هَذا الكون طَريق إلا و لهُ نهاية فَإما هَلاك و إما أمان ، فَإني أُعطيكَ هَذا الأمان و أُقدمهُ هدية بينَ يدَيكَ ، فلن أُطيل عَليكَ ، هُناك طَعام وَاحد لا يَفوقهُ طعام إنهُ الطعام الذي كَانَ يَخرج من بين كَف الأم ..

أعادني إلى مطبخ حنين ، القُدور المُوزعة على فُوهات النار ، الجُدران المُلبسة بالسيرميك المُعتق ، الرُفوف

المَصفوف عليها أطباق جهاز عُرس حنين ، الثلاجة ذات الحجم الكبير ، و رائحة البُن ، و عَبق أُمي ، و العَرق المُتصبب من جَبينها ، فهناك كتيبة من الأطفال و زوجٌ رؤوف يَنتظرُ طَبقها ، صَوتٌ يَخترقُ الذَاكرة :

شُو عاملة غدا اليَوم !! ..

تَأخُذ تنهيدة الرضَى ، تمسح جَبينها الذي يتقاطرُ منهُ زهراً : ملوخية و صَينية جاج ..

نلتفُ حول المائدة كَأننا جَرادٌ مُنتشر ، بشَره نَلتهمُ ما صَنعتهُ يُمناها ، و تتناثر بقايا العظام حَول الصُحون ، نَقول الوَاحد تلوى الآخر ، تمسحُ أفواهنا و من ثُمَّ إلى المغسلة نَغسلُ أيدينا و من غَير جزاءً أو شُكوراً ننسَى أن نقول لها :

شُكراً ..

بعد أن تفقد تلكَ الكَف الحَنون الوجه المَلائكي القلب الذي ينبضُ باسمنا و الصَدر ذُو المسَاحة الرحمانية تَقفُ وَقفة حُزن على نَفسكَ كي تَقول لها :

شُكراً ..

فَلسفة مُعلقة على جُثة الوداع ، تهوى أن تُسحبَ بجانبها ، تَتلكأ و أنتَ تنحدر حيثُ تلكَ الدار التي لا يَتقاسمُ معها سوى

الظَلام و الظُلمات ، في الأحشاء سُؤال تطرحهُ للحياة أو رُبما للموت كَيفَ للظلام أن يَبتلعَ النُور في زلة مَوت ! .. و مآذا سَوفَ تُفيدُ كلمة :

شُكراً !! ..

كَاذبٌ أنتَ بكُل ما أُوتي المَوتُ من فراق ، أنت و تعلم من أنتَ بأنَ الشُكر عبارة عن ضَماد نَرقعهُ في قَفة الدَهر إن الأحبابُ قد رحلوا ، و لتموتَ الكلمات في صَدر الشين لكُل مَا هُوَ :

شُكراً ..

حسَناً سَيدي ، دعني أُقولُ لكَ شُكراً ..

لا بُني ، نحنُ هنا أهلٌ لك ، مع أنني أعلم بأنَ الوجوه تختلف و لكن ما في القلب أعظم من المقامات و وَضع الناس في منازلهم ..

في الحَقيقة سَيدي لقد وَصَلني حَقي ، و لكن السُؤال كيفَ لي أن أردَ لكم حقكم !! ..

في زحام القال و القيل ، اقتحمت فوضَى الكَلمات و غُبار الفَلسفة ذَاكَ النُور ، نُورٌ يَحملُ لنا إبريقاً مُحكمٌ بالشَاي و فَناجين يغلبُ عليها أُبهة فناجين المُلوك :

آسف على المُقاطعة ، و لكنَ الشَاي أصبحَ جاهزاً ..

الرجل العَجوز بادرها بالشُكر :

شُكراً لك بُنيتي ، لا داعي للاعتذار ، فنحنُ من عُشَاق هَذا المُخدر العظَيم الذي يُوحي بأنهُ ألذ من كُل شَراب ..

شُكراً ..

قُلتهُا بخجل ، فالأب قَد أُعطي من لباقة الأدب و نباغة الكَلمات ما تجعلني أخرسُ كُلياً ، فَعيني تَطوفان حَول ذَاكَ الرَجُل و عَينيّ تلكَ الأُنثى ..

آنسة مُؤصدة بأقفال الحماية و الرعاية ، فمن المُستحيل أن تَخرج قافية العُيون عن حُدود الأدب ، نَوعٌ من الإناث الذي لم تَذكرهُ الكُتب و لا أبيات الشعر و النَثر ، في الحقَيقة أنا كُلي عتبٌ على عنترة و امرؤ بن قَيس و الأخطل و غَيرهم من رُواد الكَلمات و على رَأسهم نزار قباني :

كَيف فَاتهم هَذا الكمال!! ...

هَل لي أَن أُعرفَ على نَفسي الآن !! ..

هَكَذا كَانت الأَحشَاءُ تَتَسَاءل ، كُنتُ في صراع يَجحدُ و يَقبلُ في آن وَاحد ، كُنتُ أَنا الجَلادُ و الضَحية ، كَانوا هُم عبارة عن كُومبارس في قَصر لم أَعتد على الجُلوسُ في فيء أُبهَته ..

هَذا الجمالُ هُوَ الأُبهة ، هَذا أنَا هُنَا من مُخَلفات وَطن لا زَال يَنزفُ من كُل مَنافذه ، كُلنا عبارة عن منَافذ تَسيلُ منهُ دماء الكَرامة ، آه يا كَرامة لو تَعرفينَ إلى أَينَ أَوصَلتنَا يا حلوة .. يا حلوتي البهَية نَحنُ لم نَعُد نَقوى على التَنظير تَحتَ صَوت المَدَافع و المَوت فَلقد قَالوا :

يأُخذ اللهُ منَكَ الجَميل ليعُوضكَ بَالأجمل ، و إنما يُريدُ لكَ الخَير ، فَلا تَدري لعَل اللهُ يُحدثُ بعَد ذَلكَ أَمراً ..

على حَافَة أقوالهم أَذوبُ كَشَمعة حَائرة ، و مع أن حيرتي لنُ تُفيدني لأنَني أُذوبُ و أَذُوبُ و فَتيل الغَيب يُحرقني و يُبددني فَإنَ التَخيير هُنَا لا يَلزم على حَسب قَانون النَار التي تسَحقني شَيئاً فَشَيئاً ..

مَاذَا سَوفُ تُفيد الأقوال يا مُعكر البَال !! ..

هَل اللهُ أَحرقَ وَطناً برمته كَي تَرى قَمراً لم تَر من قَبله و لا من بَعده قَط ! ، هَل اللهُ شَتتَ أَهلاً كَي يَجمعكَ بأُناس لا تَعرفهُم و لا يَعرفونكَ و لا حَتى سَمعُوا باسَمكَ ، رُبمَا يَظنُونَ أنكَ منهم و من نَجمة دَاوود و هَيكلَ سُلَيمان ، هَل يُفكرونَ بهذه الطَريقة حَقاً ! ، هَل هَذا هُوَ الخَير الذي سَاقهُ اللهُ إليكَ، أم إنهَا مَحضُ صدفة كما يقولُ إخواننَا المَلاحدة!..

كَانَ هُناك إصبعٌ يَلسعني قد شَتت بنات أفكاري ، يَغرسُ سنهُ على عضُدي ، يُلقي بي و يَرفعني بَكلمة :

بُني ..

التفتُ إليه فَإذاً العَجوز يبتسمُ و صَاحبة الوَجه النُوراني تَقفُ أَمامي و بيدهَا فُنجان القَهوة الذي يتأججُ منهُ البُخار رغماً عن كُل المشَاهد الفاترة ، كَأنهُ بُركان يَغلي ، و كَأنَني ريشة مُفرغة من الحَياة ، و في الحَقيقة و بالفعل أنا مُفرغ من الحَياة ، أَو لعَلي وَجدتُ حَياة بينَي و بينهَا قَاسمٌ مُشَترك ألا و هي اللغُة ..

اللغُة هي الوَرقة الوَحيدة كَي تُوصل و يَصَلك مَا تُريدهُ و تَدفع و تَجلب لكَ ما تَرنو إليه ، اللغُة هي الوَحيدة التي تُوصَلكَ و تَخُرجُكَ و تُدَخلُكَ و تَطيرُ و تَهبطُ بكَ حَيثُ لا

تَدري ، بل إنكَ تَدري ، و إن لم تكن تَدري فَتلَكَ مُصيبةٌ و إن كُنتَ تَدري فَالمُصيبة أعظمُ يا أعظمُ ..

هُنَاكَ لغة جَميعُ من دَخلُ في قُلوبهم سَهم الهَوَى يعَرفُهَا و يَعيهَا علم اليَقين ، سَهم الهَوى الذي ذَاقهُ فقد هَوى ، إلى أين يَا فتَى ! ، إلى ذاكَ المُحيط المُخضَر ، إلى الجَفنين السَاحَليين المُمرغين بالطُهر و النُور ، لا تَشك يا فَتى إن مَرَ من هُنَا النُور ،فقد مَرَ و تَمررَ و شَبعَ نُوراً في جَوف النُور ، إنهَا لُغَة العُيون ، سهَام النَوايا ، جاذبية القُلوب ، ميزان النُفوس ، تَجاذُب الأرواح ، فَراسَة الصُدور ، سعَة المكان في ذَاكَ الثُقب الخُلبي ، ضيق البُعد رُغمَ المسَاحة الشَاسعة ، سَنتي مَتر من السَانتي ، هُنَا و في مَكَان اللا مكَان تَتَمنى أن تَنتمي لكُل مَا هُوَ لهَا ..

إلى الطُرقات المُتشَابكة بالأَغصَان الخَريفية ، إلى مَحَطات التي تَنزفُ من جُرح الغُيوم مَطراً ، إلى ثنَايا الأرصفة قَبل أن ينبت الزَنبق الرَبيعي على أسنمة الجبال السويسرية ، إلى الإشَارات الضَوئية عند مُفترق الحُمرة التي تَشي بالوقوف بعدَ كُل حَرارة شَمس صَيفية ، إلى جبال الألب و نَهر الدَانوب و شمَعدان دَاوود و جَدائل أبيهَا و الحُمرة

المُغبرة فَوقَ خُدود أُمهَا و العسَل المُنصَب من خَلايا النَحل السَهلي و قَهوة الصَباح الفَيينَاوية ..

هَل أَنا حَقاً في فيينَا ! ، هَل حَقاً مُدن المُوسيقى تُهدي لمن سَلبتهُم الحَياة أوطَانهم مَلاكاً كَهذا المَلاك ! ، هَل أنَا في حُلم أم في علم أو في مَشفى للأمراض العَقلية !! ..

عَفواً سَيدي ، التعب غَلبَ عَليَّ ..

لا عَليكَ بُني ، اشرب الشَاي و غُرفتَكَ جَاهزة يجَب أن تَنَام و سَوفَ نَتعرف عَليكَ أَكثر فيمَا بَعد ..

كَانت السَاعة الثَالثة ظُهراً بتوقيت خُروجي من الوَطن ، كُنتُ مع تَصَالح دَائم مع الوَقت و المَوت ، فالوقت كالسَيف سَوفَ يَقطعكَ شأتَ أم أبيت ، و المَوت إنهُ قَادمٌ قَادم حتى لو كُنتم في بُروج مُشَيدة كَمَا قَال اللهُ تَعالى ..

أمسكتُ بفنجان القَهوة و عَقاربُ عَينَيهَا تلسعُ صَدري ، أسعُل أول سَعلة مُشَردقاً بقَلة السُكر في الشَاي ، أكادُ أُجنُ ضَحكاً من غَرابتي لهَذا الشَاي ، كُلَ هَذا السُكر الذي صَنعَ لَي الشَاي و بحَاجة شَايهَا لسُكَر !! ..

تَضَعُ فَلقة البدَر فُنَجانهَا على الطَاولة ، تَجري إلى المَطبخ ، تَجلبُ كَأساً من المَاء ، تَنحني بكُلهَا ، تضَعُ كَفهَا على كَتفي

، أُريدُ كَتفاً لا كفاً آنسَتي ، كم أنا غارقٌ في مُستَنقع الجُنون ، مَا الذي دهاني يا تُرى !! ..

تَفضَل صَديقي ، اشرب الماء ، يجب أن تَحذر الشَاي السَاخن و لا بُد لكَ أن تشربهُ على مهل ..

نَصَائحها كَنصَائح حَنين ، لا تَخرجُ خَارج المنَزل فَهنَاكَ حَرامي ، لا تَلعب بالطين فُربمَا تُجرح بزُجاجة غَير مَرئية ، لا تَأكُل الطعام المرمي في الشَارع لأنَ الشَيطان قَد أكلَ منهَا ، لا تَقطع الشَارع فَربما تُدهس ..

و هَكَذا من نصَائح و أفلام أَكشَن و رُعب ، نُربى و نَكبُر و نَحنُ نُعَاني من عُقد الخَوف و الرُعب ، و الذي نَفسي بَيده لو شَققت عن صُدورنَا لوَجدتهَا كَمتجر مُشبع بمُعلبات العُقد النَفسية :

الخَوف من الله ، من الأب و الأُم ، من مسؤول الدَولة ، من الحَاكم ، من الجيران ، من الأقارب ، من الإنترنت ، من النَار ، من السُم ، من الطعام الفاسد ، و آخر حَلقة من الحيطَان ..

شَربتُ الماء و أكَملتُ فُنجانَ الشَاي ، و كَانت الوجوه أَمامي تَموجُ كَأنهَا ألسنة لهَب في قَلب الصَحراء ، إنهُ شَبح النَوم الذي غَلبنَي :

سُوقيه إلى غُرفته بنيتي ..

حَسناً أبتي بكُل سُرور ..

وَضَعت سَاعدي على كتَفهَا ، هَل حَقاً أنَا أُحملُ على كَتفهَا ! ، بياض عَينَيّ كَجمر الله المُستَعرة ، أَجفاني على قَيد النجاة من هَذا النُور الذي يسيرُ معي ، أنَا الذي أسيرُ مَعهُ ، كلانَا نَسيرُ معها ، هَا ها ها ، هَل أَنا سكران أم غَلبني النَوم و بدد قواي !! ..

الغُرفة و أَخيراً ، يا لي نَصَاعهَا ، يا أُبهَة بَياضهَا !! ..

كُلَ شَيء مُرتَب على حَسَب تَوقيت الجَنة ، هَل هَذه الجنة التَي وَعدَ اللهُ عَبادهُ الصَابرين ! ، فلقد كُنتُ أتهاذى على كَتفها كَأنَني قد شَربتُ لتراً من البيرة ، و في الحَقيقة لا أُحبُ تلكَ المَشَروبات التي تُذهبُ العَقل ، فَهُنَاكَ و لله الحمد مَا أذهَب عُقولنَا ، خُذ مَثلاً :

حَنين ، و أَبي ، و الوَطن ، و رُكُوب البحر ، و أَنتِ ..

أنَا ! ، نَعم أَنتِ ..

شُكراً آنسَتي ..

أوه ، كَم أنتَ لطيف ، على الرَحب و السعة ، سَوفَ أترُكُكَ تَنام ، و عندما تَستيقظ فَأنَا هُنَا لا تَقلق ..

ألقيتُ بجسدي الذي أرهقتهُ المَسَافات المُشبعة بالفَراغات ، ألقيت فَوقَ جَسدي غطَاءً أبيض أنصَع من نُور الشَمس ، بينَ أَجفاني و عُيوني مَعركة الوُجود و النوم و اليَقظَة ، و انهالت الأَجفانُ رغماً عن كُل قواي كَي تَسُد أَمواجَ نورهَا من نَظَراتي ، و حَلقتُ بَعيداً حَيثُ حوران :

الحمد لله على سَلامتكَ يُمَّة ..

يُمَة !! ..

نَعم يُمَّة ..

و اختفت يُمَّة و تَلاشَى الحَنين ، شَعرتُ بألم في عُنقي ، هَا ها ها لقد نمتُ بشكل خَطأ ، انفلقت أَجفاني بلا إذن مني ، كَانت هُنَاكَ سَاعة مُستقرة على الحَائط ، تَقولُ العَقارب :

عُمتَ مسَاءً يا فَتى ..

الأرقامُ الاثنَتي عَشَر نَطقت :

هَل نمتَ جَيداً ! ..

يا لي فُكَاهَة هَذا المَكان ، مَاذا يَجري هُنَا ، تَركتُ السَرير ، وَقفتُ على قَدَمي ، كَانت عُنُقي تُؤلمني جداً ، تَمرينٌ بَسيط و ينتهي كُل شَيء ، و لكن لا أسمعُ صَوتاً ، هَل اختفى أهل البَيت يا تُرى ! ..

خَرجتُ من تلكَ الغُرفة ، وَجتُ وَجهَ من فَارقتُهَا أَمامي ، تَجلت بوجههَا كَأنهُ بدرٌ و قد هَطل :

عُمتَ مسَاءً ..

عُمت مسَاءً آنسَتي ..

هَل نمتَ جَيداً ..

نَعم شُكراً جَزيلاً ..

بكُل سُرور ، ما رَأيكُ أن نَشربَ عَصير الليمون على الشُرفة المُطلة على الحَي ! ..

هَذا شَيء يُسعدني و بكُل تَأكيد ..

هَل تُدخن السَجائر !! ..

أنَا أُحبُ النَرجيلة ، في الحَقيقة أَنا أَكرهُ السَجَائر ..

جَيد إنَ حَظكَ جَميل ، فهناكَ نَرجيلة في أغلب الأَحيان نَستعملها ، و التبغُ مَع تُفاحتين ، أنتُم الشَرقيونَ مُصَابونَ

بَهوس هَذا التبغ اللذيذ ، حَسناً اغسل وَجهكَ و الحَقني ، فكُل شَيء سَيكون مُعداً في فَترة قَليلة ..

وَلكن !! ..

و لكن مَاذا!؟ ..

أينَ أهلك !! ..

إنهُم قدَ ذَهبوا إلى الصَلاة ، فَهذه الليلة السَبت ، و غَداً في المسَاء سَوفَ يَعودونَ من المَعبد ، لا تَقلق أنَا هُنَا في خدمتكَ ..

حَسناً شُكراً مَرة أخرى ..

عُدتُ إلى الشُرفة ، كَانت إطلالة رَائعة فعلاً ، و كلَ شَيء مُعد على حَسب الأصول ، و لكن كَانت كَنبة وَاحدة تَكفي لشَخصَين جَلستُ و جَلست بجَانبي ..

و كم لَذيذة النَرجيلة و العَصير و الهَواء و أنتِ ..

سُؤال وَاحد فقط أَدخلني في دَوامة الانضمام إلى دَولة العَاشقين ، أوقفتني بينَ مُنَحدرات الضَياع :

مَاذا تَبحث في هَذه الحَياة حَتى أتَيتَ إلى هُنَا ! ..

سَقطَ كُل مَا كنتُ أُريد القَول و التَمهيد لهُ أجبتُهَا بكُل ثَقة :

عن الحُب ..

في الحَقيقة ضَمتني ، حتى شَعرتُ بالدمَاء التي في عُروق صَدرهَا و هي تَسير من شَراييِنهَا إلى شَراييني ، كَأنَ هَذا الجَسد كَانَ نَاقصاً و بحاجة لجَسد يُتممهُ ، لا أعرفُ كَم فاتَ من الوَقت على هَذه الضَمة ، و لكَن تَبعتها قُبلة ابتلعتُ مَا فيها إلى فيه ..

فأنَا إلى هَذا الوَقت من الفراق :

على قَيد قُبلة .

أتممتُ رَواية :

على قَيد قُبلة ..

رقم 21 . في العَاصمة النمسَاوية فيينَا في مَقهى : J.Hornig ..

في السَاعة : 05:00 عصراً ، عندَ أول قَطرة من ذَاكرة القُبل ..

من تَاريخ : 24 / يوليو / 2018